بسم الله الرحمن الرحيم

سارق الأطفال

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

سارق الأطفال . ـ الرياض .

. . . ص؛ . . . سم . ـ (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك ١ ـ ٢٢٩ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٠٨٧٢، ٨١٣ ١٧/٠١٣٥

ردمك ١ ـ ٢٢٩ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠١٣٥

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ/١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

1

صَاحَ صَابِرٌ مُوَدِّعًا زُمَلاَءَهُ :

- إِلَى اللِّقَاء !

وانْفَصَلَ عَنْهُمْ مُنْزَلِقًا فوْقَ لَوْحِهِ الدَّارِجِ (سْكَيْت بُورْدْ)، ودَخَلَ زُقاقًا خالِيًا .

كَانُوا جَمِيعًا يَحْمِلُونَ مَحَافِظَهُمُ الجِلْدِيَّةَ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَيَتَسَابَقُونَ عَلَى أَلْواحِهِم الدارِجَةِ بَعْدَ مُغَادَرَةِ المَدْرَسَةِ مَسَاءً . وكانوا جَميعًا بَيْنَ الثَامِنَةِ والعاشِرَةِ مِنَ العُمُر.

وانْطَلَقَ صَابِرٌ يَتَدَرَّبُ عَلَى القَفْزِ وَالْوُقُوفِ المُفَاجِئِ والانْعراجِ الحَادِّ بِلَوْحِهِ في المَمَرِّ الخَالي المُؤَدِّي إِلَى مَنزِلِه . كَانَ دائمًا يَخْتَصِرُ طَرِيقَهُ إِلَى دَارِه عَبْرَ المَمَرّ.

وفُوجِئَ بسيارةٍ صغيرةٍ سَوْدَاءَ تَسُدُّ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ الضَّيِّقَ، فَتَوَقَّفَ رَافِعًا مُقَدِّمَةَ اللَّوْحِ، وأمسَكَهُ بِيدِه وَرَاحَ يَنْظُرُ إِلَى دَاخِلِ السَّيَّارَةِ بِفُضُولٍ .

كَـانَ يَجْلِسُ وَرَاءَ عَجَلَـةِ القِيَـادَةِ رَجُلٌ رَثُّ الثِّيَـابِ ، عَلَيـه مَظْهَرُ البَدَاوَةِ ، لَهُ لِحْيَةٌ وعِمَامَةٌ ، وعَلَى عَيْنَيْهِ نَظَّارَةٌ بَاليَة .

لَمْ يُثِرْ مَظْهَرُ الرَّجُلِ البَدَوِيِّ فُضولَ صَـابرٍ بقَدْرِ مَا أَثَارَهُ مَنْظَرُ الحَيَوانِ الـذي كانَ في حِضْنِه . واتَّسَعَتْ عَيْنَـا صَابر وَهُـوَ يَنْظُرُ إِلى العنـزِ البَيْضَـاءِ الصَّغِيرَةِ السِّنِّ والـوَزْنِ ، وَهِيَ تَـرْضَعُ مِنْ رَضَّاعَةٍ في يَدِ الرجُل .

وَاقْتَرَبَ لينظُرَ إِلَيها مِنَ النافِذَةِ ، فَابْتَسَمَ لَهُ الرَّجُلُ قَائِلاً :

- هَلْ أَعْجَبَتْك؟

فَرَدَّ صَابرٌ لاهِثًا :

- آه! جِدًّا . . !

ومَـدَّ يـدَهُ يَمْسَحُ عَلَى رَأْسِهَـا الصَّغِيرِ، وفَرْوتِها النَّظِيفَـةِ اللاَّمِعَة .

وَسَأَل :

- مَاذَا سَتُسَمِّيها؟

فحرَّكَ الرَّجُلُ رَأْسَه :

- لا أَدْرِي مَـاذَا سَيُسَمِّيهَـا صَاحِبُهَـا؛ فَقَـدْ جِئْتُ بِهَا لابْنِ شَرِيكي. طَلَبَهـا مِنِّي أَبُوهُ، لِيُقَـدِّمَهَا لَـهُ هَـدِيَّةً بِمُنَـاسَبَةِ عِيـدِ مِيلاَدِهِ، أَوْ نَجَاحِهِ رُبَّمَا، لاَ أَدْرِي.

فَتَنَهَّدَ صَابِرٌ فِي حَسْرَةٍ، وَقَال:

- مَا أَسْعَدَه!

فَقَالَ الرَّجُلُ:

- مَـا أَسْعَدَهُ إِذا اسْتَطَعْتُ العُثُـورَ عَلَى مَنْزِلـه! فَمُنْذُ الظُّهْـرِ وَأَنَا أَبْحَثُ عَنْ عُنْوانِهِ دُونَ جَدْوى.

ثُمَّ أَضَافَ مُسْتَدْرِكًا:

- لَعَلَّكَ، يَـا وَلَـدِي، تَسْتَطِيعُ مُسَاعَـدَتِي عَلَى العُثُـور عَلَى الدَّارِ. فَأَنَا لاَ أَعْرِفُ القِرَاءَة.

فَأَجَابَ صَابِرٌ مُتَحَمِّسًا لِلْمُسَاعَدَة:

- إِذَا اسْتَطَعْتُ. مَا عُنْوَانُه؟

فَأَخْرَجَ لَهُ الرَّجُلُ قِطْعَةَ وَرَقٍ بَالِيَةً كُتِبَ عَلَيْهَا:

الدُّكْتُور نُورُ الدِّينِ خَلِيل

طَبِيبٌ جرَّاحٌ

12 ، زَنْقَـةُ أصِيلَـة الرِّبَاط

وَارتَعَشَتْ يَدَا صَـابِرٍ وَهُـوَ يَقْرَأُ اسْمَ أَبِيـهِ وعُنْوَانَ مَنْـزِلِه . وَلَمْ يَتَمَالَكْ أنْ صَاحَ :

- إنَّهُ عُنْوَانُ مَنْزِلِنَا ! هَذَا اسْمُ أبِي !

فَأخذَ الرّجُلُ الوَرَقَةَ مِنْهُ وَقَدْ بَدَا عَلَى وَجْهِهِ الشَّكُّ ، وَقَالَ :

- أَحَقًّـا مَا تَقُـولُ ، يَـا وَلَـدِي ؛ أمْ أَعْجَبَتْكَ العنـزُ، وتُرِيـدُ أَخذَهَا لِنَفْسِـك؟

فصاحَ صَابِرٌ:

- واللهِ العَظِيمِ مَـا قُلْتُ لَكَ غَيْرَ الحَقِّ ! الدُّكْتُـورُ خَلِيلٌ أبي ، وَأَنَا ابْنُه صَابِر.

فابْتَسَمَ الرَّجُلُ سَعِيدًا ، وَقَالَ :

- يا لَهَا مِـنْ مُصادفَـةٍ غَرِيبَة ! لَـنْ يُصَدِّقَ وَالِـدُكَ هَذَا حِينَ نَحْكِيهِ لَهُ . تَعَالَ . تَعَالَ إذَنْ ، خُذْنِي إلى دَارِكُم .

وَمَـدَّ يـدَه فَفَتَحْ بـابَ السَّيَّـارَةِ عَلَى يَمِينِـهِ، فَـدَخَلَ صَـابِـرٌ بِسُرْعَـةٍ، ورَمَى بلَـوْحِهِ الـدَّارج إِلَى الخَلْفِ، وَجَلَسَ يَنْظُـرُ إلى العنز الجَميلَة بِشَغَفٍ كَبِير!

وكَانَتِ العنزُ قَدْ شَرِبَتْ كُلَّ مَا كَانَ فِي الرَّضَّاعَةِ مِنْ حَلِيبٍ، فَرَفَعَهَا الرَّجُلُ مِنْ حِجْرِه، وَنَظَرَ إِلَى صَابِرٍ مُبْتَسِماً، وسَأَلَه:

- هَلْ تُرِيدُ حَمْلَهَا حَتَّى نَصِلَ إِلَى الدَّار؟

فَحَرَّكَ صَـابرٌ رَأْسَـه قَابِـلاً بِسُرُور. ومَدَّ يَدَيْـهِ فَأَمْسَكَ بِهَا مِنْ تَحْتِ بَطْنِهَا، كَمَا يُمْسِكُ بِتُحفَةٍ ثمينةٍ يَخْشَى أن تَنْكَسِر!

وخَرَجَ الرجلُ بالسيارةِ من المَمَرِّ، وسأَلَ صابرًا:

- أين نَتَوَجَّه؟

- إِلَى اليَسَارِ أولاً. فَهَذَا شَارِعٌ ذُو اتِّجاهٍ واحد.

وَتحَرَّكَ الـرَّجُلُ، وصَـابـرٌ يَضُمُّ العنزَ إِلَيْـه، لِيُحِسَّ بِـدِفْئِهَـا ونُعُومَتِهَا، ويُـرِيه الطَّرِيقَ حَتَّى حَـاذَت السَّيَّارةُ الشّارعَ المُؤَدِّيَ إلى الـدارِ، فَتَـوقَّفَ الـرَّجُلُ، ووضعَ يَـدَهُ عَلَى جَبِينِه مُتَـذَكِّـرًا، وقال:

- يَا لِي مِنْ مُغَفَّل!

فَرَفَعَ صَـابرٌ عينيه عَـنِ العنزِ لِيَنْظُرَ إِلَيْـهِ مُسْتَفْسِرًا، فأضَافَ الرَّجُلُ:

- أَوْصَانِي سيدِي نُورُ الـدينِ، والدُكَ، أَنْ آتِيَهُ بِعَلَفٍ لِلْعنزِ، ولَكِنِّي نَسِيتُ تَمَامًا. ظَنَنْتُ أَنَّ المَدِينَةَ مِثْلُ البَادِيـةِ. يتوافر فيها المَرْعَى فِي كُلِّ مَكَان.

وَسَأَلَ صَابرٌ قَلِقًا على فِرَاقِ عنزِهِ:

- وَمَاذَا سَتَفْعَلُ الآنَ؟

- لاَ بـدَّ أن أعودَ إلى المزرعـةِ، وَآتِيَ بالعَلفِ، وإلاَّ تَعـرَّضْتُ لِغَضَبِ أبيكَ. وَأَنْتَ تعرِفُ كيف يَصِيحُ!

وَسَأَلَ صَابِرٌ خَائِفًا:

- هَلْ سَتَتْرُكُ العنزَ مَعي؟

فَنَظَرَ الرَّجُلُ إليه مُفَكِّرًا:

- فِي الحَقِيقَةِ، يَـا وَلَدِي، أبُـوكَ كانَ يُـرِيدُ أن تكُـونَ هَدِيَّتُـهُ مُفَاجَأةً لَك، لِذَلِك يَجِبُ أن آخُذَهَا مَعي حَتَّى أعُودَ بِالْعَلفِ.

فَاسْتَعْطَفَهُ صَابر:

- أرْجُوكَ ، أرْجُوكَ لاَ تَأخُذْهَا مِنِّي !

- وَلَكِنْ لاَ بُدَّ أن آتِيهَا بِالْعَلف وإِلاَّ مَـاتَت المِسْكِينَةُ جُوعًا ؛ فَالْحَلِيبُ وَحْدَه لاَ يَكْفِيها .

فَصَاحَ صَابِرٌ:

- أذْهَبُ مَعَك إذَنْ إلى المَزْرَعَة .

- أَلَنْ تَقْلَقَ عَلَيْكَ أمُّك؟

- لاَ، لَنْ تَقْلَقَ. كَثِيرًا مَـا أَتَـأَخَّـرُ فِي اللَّعِبِ مَعَ زُمَـلائِي في الشَّارِعِ بَعْدَ المَدْرَسَةِ .

وبَعْدَ تَرَدُّدٍ قالَ الرجُلُ :

- حَسَنًا . إِذَنْ سَتَذْهَبُ مَعِي ، وَسَوْفَ نَعُودُ بِسُرْعَة .

وانْحَـرَفَ بـالسيـارة نحـو طـريقِ «أبي رقـراق» المُشْرِفِ عَلَى النَّهْرِ، وانطَلَق مُتَـوجِّهًا إلى طَرِيقِ مكْنَـاسَ، عَبْرَ الجِسْرِ القَدِيمِ وفَخَّارى (الوَلْجَةِ) ثُمَّ طَرِيقِ الغَابَةِ المُزْدوِجَة .

وَحِينَ اجْتَازَ مَدْخَلَ القاعِدَة الجَوِّيَّةِ أخَذَ يُسْرِعُ قَلِيلاً دُونَ أنْ يَتَجاوَزَ الحَدَّ القَانُـونِيَّ؛ فَقَدْ كَانَ حَرِيصًـا ألاَّ يَلْفِتَ نَظَرَ رِجَالِ الشرطة، أو يَتَعَرَّضَ لِتَوْقِيفِهِمْ لأيِّ سَبَب.

ومَا كَادَ يَجْتَازُ الطَّرِيقَ المُؤَدِّيَ إلى مَطَارِ (الرباط - سَلا) حَتَّى هَبَطَ قَلْبُهُ، وأخذَ يَدُقُّ بعُنْفٍ. فَقَـدْ رَأى في مِرْآتِهِ شرطيًّا يَمْتَطِي دَرَّاجَتَهُ النَّارِيَّةَ المُتَفَجِّرَةَ كَقُنْبُلَـةٍ عَلَى عَجلاَتٍ! وَهُوَ يَلْبَسُ بَذلَتَهُ الرَّمَـادِيةَ الدَّاكِنَـةَ وَخوْذَتَـه الجِلْدِيَّةَ المُحَـاطَةَ بِشَرِيطٍ أَحْمَرَ، وعَلَى عَيْنَيْهِ نَظَّارَتُه الكَبِيرَةُ التي تَجْعَلُ مَنْظَرَهُ مُفْزِعًا وَكَأنَّه رَجُلٌ آلي!

وَأحَسَّ البَـدَوِيُّ بِأنَّهُ يَقْبِضُ بِقُـوةٍ عَلَى عَجَلَةِ القِيَـادَةِ لِتَوتُّـرِ أعْصَابِهِ، وَقَدِ ابْتَلَّتْ يَدَاهُ وَجَبِينُهُ بِعَرَقٍ بَارد.

وَأَحَسَّ صَـابِـرٌ بِشَيْءٍ غَيْرِ عَادِي، فَـرَفَعَ وَجْهَـهُ البَـاسِمَ عَنِ العنزِ الصغيرةِ لِيَنْظُـرَ إلى السائقِ، فَـرَآهُ يَنْظُرُ إلى المِرْآةِ، وَيَعَضُّ عَلَى لِسَـانِـه، فَـالْتَفَتَ إلى الخَلْفِ فـإذَا الشرطي يَسِيرُ خَلْفَ السَّيَّارَةِ مُبَاشَرَةً بِوَجْهٍ جَامِد.

وَنَظَر ثانيـةً إلى الرَّجُلِ البَدَوِيّ فَلاَحظَ شيئًا غـريبًا. . كَانَتْ لِحْيَتُـه البَيْضَـاءُ تَسْقُطُ عَنْ وَجْهِـه بِفعْلِ العَـرَقِ، وَهُـوَ يُحَاوِلُ

إرْجَاعَهَـا إلَى مَكَانِهَا ، ويَحْدِجُ صَابرًا بعَيْنِـهِ اليُمنَى ، ثُمَّ يَعُودُ إلى النَّظَرِ إلَى الشرطي فِي المِرْآةِ في حَيْرةٍ شَديدة .

وَشَعَـرَ صَابـرٌ بالْخَوْفِ ، فَـوَضَعَ العنـزَ بَيْنَ سَاقَيْـه ، دُونَ أنْ يُحَوِّلَ بَصَرَهُ عن الرَّجُلِ المُرْتَبِكِ . وَلاَحَظَ هَـذَا حَرَكَتَه ، فَخَـاطَبَهُ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ :

- مَاذَا تَنْوي أنْ تَفْعَل؟

فَسَألهُ صَابِرٌ خَائِفًا :

- مَنْ أنْت؟

- أنَا شَرِيكُ أبِيكَ ، كَمَا قُلْتُ لَك .

- وَلَكِنْ لِمَاذَا تَضَعُ على وجهِكَ هَذِهِ اللِّحْيَةَ التَّنَكُّرِيَّة؟

وَلَمْ يُجِبِ الـرَّجُلُ عَنْ سُـؤَالِـهِ ؛ فَقَدْ كَـانَ مَـشْغُـولاً بـالشرطي خَلْفَهُ ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى أنْ قال :

- سَأشْرَحُ لَكَ فِيمَا بَعْــد ، حِينَ يَـذْهَبُ هَــذا الشرطي البغيض .

- وَلِمَاذَا تَخَافُ الشرطي؟

عالٍ من نفيرِها على السيارةِ التي خَرَجَتْ عن طريقِها، وكادت تصطَدِمُ بها أثناءَ مُحَاوَلَةِ الهُروبِ.

وانحرفَ الرجلُ بالسيارةِ يمينًا، فـدخلَ الغابةَ، وهو يراقِبُ الشـاحنَةَ التي كـان سائِقُهـا ما يـزالُ غاضِبًا يفكِّرُ في التـوقُّفِ والنزولِ لتِأدِيبِه.

واغْتَنَمَ صـابـرٌ فـرصـةَ بُطْءِ السيـارةِ، وانْشِغَـالِ السـائِقِ بالشاحنة، ففتحَ البابَ، وقَفَزَ من السيارةِ هارِبًا نحوَ الأشجارِ الكثيفة.

ولم يَنْتَبِهْ إليهِ خـاطِفُهُ حتى كان بينَ الأشجارِ، فـانطلقَ يَعْدُو خَلْفَه بخطواتٍ واسعةٍ سريعة.

واختفى صــابِـرٌ عـن عينيــه بينَ الأشجــارِ والأحْــرَاشِ المُتَشَابِكَة، فوقف الرجُلُ يُنصِتُ إلى وَقْعِ أقدامِه.

وانطلق صـابـرٌ يجري بخطـواتٍ خفيفةٍ على أحـدِ المَمَرَّاتِ الضيِّقَـةِ مُتَجَنِّبًـا الأوراقَ اليـابسـةَ والأعــوادَ الجافَّـةَ، حتى لا يسمَعَهُ مطارِدُه.

- لأنني نسيتُ جميعَ أوراقي في المزرعـةِ، وليسَ عنـدي مـا أعطِيهِ لأُسْكِتَه.

واقْتربَتِ السيـارةُ من مَـدْخل مـركـزِ الشبيبـةِ والـريـاضـةِ (بالمَعْمُـورَة)، فأضاء إشـارَةَ اليمينِ، وأبْطَأَ السيْرَ، وهـو يُرَاقِبُ بِعَصَبيَّةٍ رَدَّ فِعْلِ الدركي.

وتنفَّسَ الصُّعَـدَاءَ حينَ انحرفَ الـرجلُ الآلي المُسَلَّحُ والمُغَطَّى بالأحْزِمَة الجِلْدِيَّةِ، بِحِصَـانِهِ الحَدِيدِيِّ الجبَّارَ، ليَتَفَادَى السيارةَ القَديمة، ويَنْطَلِقَ في طرِيقه كَصَارُوخٍ راعِدٍ...

وكان صـابِرٌ يتفـرَّجُ على كلِّ مـا يحدُثُ حولَـه دونَ أن يفكِّرَ. ولكنْ حـالَمَا اختفَى الشرطي أدركَ أنـهُ بَقِيَ وحـدَه مع رجلٍ لا يعرفُه، بعيدًا عن المدينةِ، والليلُ وشيكُ النزولِ.

وفي هذِهِ اللحظةِ تذكَّرَ نصـائِحَ والِدَيْهِ ألاَّ يُكَلِّم غريبًا، وألاَّ يَرْكَبَ سيارةَ أحدٍ لا يعـرفُه لأيِّ سببٍ من الأسباب، وألاّ يأخذَ أيَّ شيء كـان من أيِّ واحِدٍ في الشـارِعِ، خصـوصًا الحلـوى أو أي شيء يُؤكَلُ. ودَقَّ قلبُه بسرُعَـةٍ، وأحسَّ بالحرارَة في وجهِه، وبقطـراتِ العَـرَقِ تَتَجَمَّعُ فـوقَ جبينِه، وتحتَ إبطَيْـهِ. وعقَـدَ

العزمَ على الفِـرَارِ من هـذا الرجل الـذي لا بدَّ أن يكـونَ سارقَ أطفال!

ولكن كيف؟ كانَ الرجلُ الغريبُ قد عادَ بالسيارةِ إلى طريقِ (مكناسَ) بعـدَ اختفاءِ الشرطي، ومـدَّ يَده فَنَزَع اللحيـة كلَّها، وأخرجَ مِنْدِيلاً مُلوَّنـا كبيرًا من جَيبِهِ، وأخذَ يمسـحُ به وجهَهُ من المَساحِيقِ التي كانت تُظْهِرُهُ رجُلاً مُسِنًّا. ونزعَ العِمامَةَ عن رأسِه ورماهـا إلى الوراء، فإذا بشَعرٍ أسـودَ كثيفٍ ممشوطٍ إلى الخلْفِ، فمَسَحَه بيدٍ ناعِمَة، ونظرَ إلى صـابرٍ وغَمَزَه، وابتسمَ له ابتسامةً لمْ يدْرِ كيفَ يُفسِّرها. وبدا لَهُ أصغرَ كثيرًا مِمَّا كان.

وزاد خوفُ صـابرٍ، وتـأكد عَزْمُـه على الهُرُوبِ بأيَّـةِ وَسِيلة. وأخَـذَ يَتَحَيَّنُ الفرصـةَ، بدأ ينظـرُ إلى الوراءِ، لعلَّـهُ يرى سيـارةً قادمة.

وَحَانَتِ الفرصـةُ حين ظهرتْ شاحنةٌ ضخمـةٌ آتيةٌ أمامَهُم، فأمسكَ صابـرُ بِمقْبضِ الباب، وفتحـه، وهم بالارْتماء. ولكنَّ قبضةَ صـاحبِهِ انْطَبَقَتْ على عُنُقِـهِ بشدَّةٍ حتى كـادت تَقْصِفُه! فأعـادَتْهُ إلى مكـانِه. ومـرَّتِ الشاحنـةُ مُطْلِقَةً صرَاخَ احْتِجَـاجٍ

وبعدَ مدَّةٍ من العَدْوِ السريعِ وقف يستريحُ ويُنْصِتُ إلى وَقْعِ أقدامِ مُطارِدِه. وكان قلبُه يَنْبُضُ في أذنِهِ، فلم يكنْ يدري هلْ من الخَوْفِ أم من الجَرْي. ووَدَّ لو استطاعَ إسْكَاتَ نَبَضَاتِه ليستطيعَ الإنْصَاتَ إلى ما يجري حولَه!

وَوقَفَ خلفَ شجرةٍ ضَخْمَةٍ يُراقِبُ جميعَ الاتِّجاهاتِ والمَمَرَّات المُتَشَابِكَةِ بعينينِ واسعتينِ، ويحاوِلُ اختراقَ عَتَمَةِ الغَسَقِ التي بدأتْ تنزِلُ على الغابةِ.

ووقفَ الرجلُ وسطَ مُفْتَرَقِ طُرُقٍ يَتَفَرَّعُ في جميع الاتجاهاتِ حائرًا لا يدري أيَّ اتجاهٍ يأخذُ. وأحاطَ فَمَهُ بِكَفَّيْهِ في شِبْهِ بُوقٍ، وأخذَ يُنادي:

- صابر! صابر! ارجعْ يا بُني... إنها مجرَّدُ نُكْتَةٍ. تعالَ نرجعُ إلى دارِكم قبلَ نُزُولِ الظلام!

ثم خطَا بِضْعَ خطواتٍ إلى الأمام، وأعادَ النداء:

- صابر. لا تَبْتَعِدْ كثيرًا، فسوفَ تَتِيهُ وتَضِلُّ طريقَ العَودة... الغابةُ خطِرَةٌ في هذِه الساعة!

وسمِعَ صابرٌ صوتَ الرجلِ يقتربُ نحوَه، فأطْلَقَ ساقَيْهِ للريحِ في الاتجاه المُعَاكِس. وبعدَ بِضْعِ دقائق من الجري وقفَ يَلْهَثُ ويستَرِيح ويُنْصِت.

وفوجئَ بالظلام ينزلُ سريعًا في قلْبِ الغابةِ الصامِتَةِ. وهدأ خَفَقَانُ قلبه وَخَفَّتْ سرعةُ تنفُّسِهِ، فبدأت أصواتُ الغابةِ الغريبةُ تَتَرامى إليه. وسمِعَ ما يُشْبِهُ وَقْعَ الأقدامِ خلْفَه فالْتَفَتَ بِسرعةٍ، وصدرتْ عنهُ شَهْقَةٌ غير إراديةٍ، ولكنَّه لَمْ يَرَ شيئًا... وترامَتْ إليهِ أصْواتُ الحَيَوانَاتِ الصغيرةِ كالسناجبِ والجُرْذَانِ والفِيرَانِ والسَّحَالِي والسَّلاَحِفِ والخَنَافِسِ والطيورِ المُعَشِّشة في الأشجار. وأدرك، رَغْمَ نزولِ الليل، أنَّ الغابَةَ كانت تَنْبُضُ بالحياةِ من حَوْلِه.

ودَاخَلَهُ خوفٌ من نوعٍ آخر. تَذكَّرَ ما قَرأَهُ وما رآهُ في السينما والتليفزيون عن الحيواناتِ المفترسةِ التي تَعُجُّ بها الغاباتُ، والتي تَخْرُجُ للبحث عن طعامِها ليلاً، مثل السِّباع والضِّباع والنُّمورِ والفُهودِ والذِّئابِ والثَّعالِبِ والأفاعي السَّامَّةِ وغيرِها من الزواحِفِ الكريهة التي تَقْطنُ الغابَات.

ونَعبَتْ فوقَه بُـومَةٌ، فطار قلبُه فَزعا، وقَفَـزَ في مكانه وانطلقَ يعدو كالمجنونِ بلا هَدَف . . .

وحين أدَركَ أن مـا سمِعَه كـان مُجَرَّدَ صوتِ بُـومـةٍ وجد أنـه محاط بالأدغـالِ الكثيفةِ من كلِّ جـانبٍ، وأنه هـائمٌ على وجهِهِ تمامًا، لا يعرِف أينَ هو، ولا في أيِّ اتجاه يسير!

وجلسَ وظَهْـرُهُ إلى شجـرةٍ عجـوزٍ وأخــذَ يبكي. وخَفَّفَ البُكاءُ بعضَ ما كان به من تَوَتُّرِ أعْصَابٍ، فمسحَ عينيهِ، وفكَّرَ أن البكاءَ لن يُجْدِيَـه، وأنه لا بـد أن يبحثَ لنفسِه عن مَخْرجٍ من هذِه المَتَاهَةِ.

2

وعلى حِفاف الغـابـةِ وقف مُخْتَطِفُـهُ يَعَضُّ على لِسـانِـه في عَصَبيَّةٍ، وينادي:

- صابر! هل تـسمَعُني؟

وبصوتٍ خافِتٍ كان يسبه بينَ أسنانِه: «أشقاك الله، أيها الثعلبُ الصغير!» وكأنما ذكَّرهُ الثعلبُ بشيءٍ، فرفعَ عقيرتَه مَرةً أُخرى، ونادى:

- صابر، اِسْمَعْ، الغابةُ عامرةٌ بالذئابِ والثعالبِ الجائعة... إذا تَوَغَّلت بداخِلِها فسوفَ تفترسُك! إذا كنتَ تسمعُني فاخرجْ حالا، لنعود إلى دار أبيك. لا بد أنهمْ يبحثُون عنك.

وقَلِقَ المُخْتَطِفُ لهِذه الحقيقةِ. وردَّدَ بصوتٍ خفيض:

- أرجو ألاَّ يُخبرِوا الشُّرطَةَ قبل أن أتَّصِلَ بهم بالتليفون.

وصنَع من كَفَّيْهِ بوقًا، وأخذَ يَعْوِي مُقَلِّدًا الذئاب بإتْقَانٍ

كبير! ثُمَّ قـال لنفسه: «إذا لم تُخْرِجْـهُ هـذه من هنـاك فلا بـد أن قَلْبَه من حديد، أو أنه مَيِّت!».

وَعَضَّ على لِسانِه حين نَطَق بِكَلِمَـةِ ميِّت، وخاطَبَ نفسه: «إذا مـاتَ فلـن أخْسرَ الفِـدْيَـةَ الكبيرةَ فقـط، بل رُبَّمَا حتى حَياتي».

وعاد إلى السيارةِ فـركِبَها ودخلَ الغابـةَ، وسارَ بين الأشجارِ بِبُطْءٍ يستعملُ المُنَبِّـهَ مرةً، والضـوءَ العـالِيَ مرةً أُخـرى، ويُخْرِجُ رأسَه من النافذةِ لينادي:

- صـابـر، لا تَخَفْ يـا ولـدي..! واللهِ العظيمِ لَن يُصيبَكَ منِّي أَيُّ سوء!

وتوغَّلَ في الغابةِ بعيدًا، حتى كادَ يَضِلُّ الطريقَ هو الآخر!

3

وفي دار صـابـر جَلَسَتْ أُمُّهُ (بلقيـس) تُسَامِـرُ صـديقتين، جاءَتَا لزيارتِها بغرفةِ الجُلوسِ الفاخرة والمُضَاءَةِ بثُرَيَّا مِن البِلَّوْرِ.

وحين دخلتِ الخادمُ بإبريقِ الشايِ سألتها:

- هل عاد صابر؟

- لا، لم يَعُدْ بعد.

- هل عِنْده اليومَ مُراجعة؟

- لا. المراجعةُ يومَ الإثنين.

- فلماذا تأخر، إذن؟

- أحيانًا يتـأخر ليلعبَ مع أولادِ «الحَوْمَة»، أخذَ معـه لوحَهُ الدِارج إلى المدرسة.

وتَنَهَّدتِ الأم غيرَ مُـرتاحةٍ لتصرفـاتِ ابنها، وصرفَتِ الخادِم بحركـةٍ من يدِها، وعادت تَبتَسِمُ ابتسـامَتَهَا السابقَة، لتـواجِه زَائِرتَيْهَا.

4

وفي الغابةِ لم يدْرِ صابرٌ كَمْ مَـرَّ عليه من الوقت وهو سائرٌ في خطٍّ يحاوِلُ أن يجعَلَـه مُستْقيماً، حتى لا يَبقَى يـدورُ حولَ نفسِـه في دَائِرَةٍ مُغْلَقَة!

وتمنَّى لو أنه كان يحلُم . .

ولكنَّ سِربًـا كبيرًا من طيـورِ الكَـرَوانِ كان يطيرُ بعيـدًا فـوق رؤوسِ الأشجارِ مُسَبِّحًا بأصواتِهِ الليليةِ أيقظَهُ من حُلْمِه .

وتَذَكَّـرَ ما قـاله لـه معلِّمُه أثنـاءَ رحلتِه إلى هـذه الغابـةِ نفسها حولَ معرفةِ الاتجاهِ وَسطَ الغاباتِ . كان السرُّ يَكْمُنُ في طَحالِبَ تَنْبُتُ على جـانبِ الأشجـار المواجِهــةِ لإحْدَى الجهـات الأربع ونسيَ هلْ للغربِ أو للشرقِ؟

واختلَطَ عليه الأمرُ، وَنَدِمَ عَلَى عدمِ الإصْغَاءِ لِمُعَلِّمِه .

وقرَّرَ طردَ الخوفِ من بالِه ، والمَسيرَ وَلْو على غيرِ هُدى ، لَعَلَّهُ يعثُرُ على شيءٍ ، على كـوخِ حارسٍ ، أو منزلِ فـلاَّح ، أو طرِيقِ سيارات . . .

طـريقُ السيارات إذا عثـر عليـه حُلَّتْ مُشْكلتُه . ولا بُـدَّ أن الطريقَ قريبٌ لأنه يَمُرُّ وَسطَ الغابَة .

وأصَاخَ بسمعه إلى أصواتِ السيـاراتِ ، ودارَ في مكانِهِ دورةً كـاملةً ، وهـو يَمْسَحُ الأُفُقَ بعينيـه ؛ لعلَّـهُ يـرى أضواءَ سيـارةٍ عابرة .

ومشى في طريقٍ واسعٍ ، تخترقُـه عِدَّةُ طُرُقٍ من جميعِ الـزوايا . وأحَسَّ بالجوعِ يُمَزِّقُ أحْشَاءَهُ ، وتذكَّـر أهلَه . لا بدَّ أن أباه وأمه يمـوتان قلقًـا عليـه ! هذا وقت عَشـائه ونـومه . لا بـد أن وقت بـرنَامجه المُفَضَّلِ بـالتليفـزيونِ قـد مَضَى . تَفَـرَّجَتْ عليه أختُـه وحدَها .

يا لَـهُ من مُغَفَّل ! لماذا وَثِق بِهذا الرجلِ المَشْبُـوه؟! لماذا انْقَادَ إلى إغْرَاءِ العنز الصغيرةِ بتلكَ السهولة . يا لَهُ مِنْ بَليد!

وندِم على غفلتِه وسَذَاجَتِـه . وأقسَم إن خرجَ من هذه المِحْنَةِ ألاَّ يُكَلِّمَ غريبا أبدًا طُولَ حياته .

ومشى على غيرِ هُدى مُدَّةً من الوقتِ ، حتى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ ، وأرْهَقَهُ المَشْيُ والخوفُ والجوعُ واليأسُ!

5

وفي داره بـالمدينــةِ وقفت أمُّـهُ تُـوَدِّعُ زَائِرَتَيْهَــا على البـاب ، وانتظـرَتْ حتى رَكِبَتَـا سيـارَتَهُمَا وذَهَبَتــا ، فـدخلتْ تسألُ عن صابرٍ، فَأَجابتها الخادِمُ، وقد ظهرَ عليها القلق :

- سيدي صابرٌ لم يَعُدْ بعد .

فصاحتْ بلْقِيسُ غيرَ مُتَوَقِّعَةٍ جوابَها :

- كيف؟ ! لم يَعُدْ بالمرَّة، حتى لِـوَضْعِ قِمَطْرِ كُتُبِه وأخْذِ شيءٍ يأكلُهُ؟

- لا، يا سيدتي .

- وَلِمَ لَمْ تخبريني؟

- لقد أخبرتك .

فَحَدَجَتْها المرأةُ بنظرةٍ غاضِبَةٍ، وصاحت :

- أُخْرجِي . ابحَثي عنـهُ في جميعِ الأماكنِ التي يـذهبُ إليها في هِذِه الساعةِ .

وخرجت الخادم تجري، وتبعتْها بلقيسُ إلى الشارعِ، وقد بدأ قلبُها يرتعش . . .

6

وفي الغَـابَـةِ وجـدَ صَـابـرٌ نفسَـه فَجْأةً في أرْضٍ خَـالِيَـةٍ من الأَشْجَار. وَظَنَّ أنه وَصَلَ إلَى طَرَفِ الغَابَةِ . . وَدَاعَبَهُ الأملُ في أن يكونَ هذَا طَـرفَ الغَابَةِ الذي دَخَلَ مِنْهُ، فَهُوَ يَعْـرِفُه جيِّدًا، لِكَثْرَةِ مَا جَـاءَ للنُّزْهَةِ أَيَّامَ الجُمَعِ صُحْبَةَ أهْلِـهِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ السَّيَّـارَاتِ، وَمِنْ (مَركـزِ مَوْلاَيَ رَشِيـدٍ لِلشَّبَابِ). وَفي المَرْكَزِ حَارِسٌ يَعِيشُ مَعَ عَائِلته. وَرُبَّمَا عِنْدَه هاتفٌ.

وَلَكِنْ مَا كَادَ يَتَوَسَّطُ الرُّقْعَةَ العَارِيَةَ وَيَنْظُرُ أمَامَهُ حَتَّى أحَسَّ بِشَيْءٍ غَريبٍ يُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِب. . .

سَمِعَ أولاً حَفِيفَ أجْنِحَـةٍ لَيْسَتْ كالأجْنِحَـةِ العَادِيـة، فَلَمْ يَكُنْ يَصْـدُرُ عنهـا صَوْتُ الـرِّيش. وَأحَسَّ بـالهَوَاء يَتَحَـرَّكُ مِنْ حَـوْلِهِ. وَرَفَعَ عَيْنَيْـهِ فَإذَا سِرْبٌ هَائِلٌ مِنَ الخَفَـافِيشِ المُتَوَحِّشَـةِ تُهَاجِمُهُ مِنْ كُلِّ جانب!

وَرَفَع ذِرَاعَيْـهِ لإبْعَادِهَا عنـهُ، فأخذَتْ تُطْلِـقُ من حَنَاجِـرِها زَعيقًا مُنَفِّرًا. وَوَضعَ يـديهِ على وجهِهِ وِقَايَةً لعينيـه، وأخذ ينظرُ

من خـلاَلِ أصابعِـهِ، فإذا بـوجوهِ الـوطـاويطِ البَشِعَةِ الشبيهـةِ بـوجوهِ الفئـران تَقْتَربُ من وجهـه بسرعَـةِ الطـائراتِ النفاثـةِ، فيُغْمِضُ عينيهِ مُتَوَقِّعا اصْطِدَامَهَـا بِه، ولكنها كانت تَنْحَرِفُ في آخِرِ لحظةٍ، زَاعِقَةً في وجهِـه من خلالِ أسنَانها الحادَّةِ. وانبطحَ على الأرض ليتفـاداها، ومـدَّ يـدَه يبحثُ حَـواليَْه عن عَصًـا أو غُصْنٍ يدافع به عن نفسهِ، إذا قرَّرتِ الخفافيشُ الهجومَ عليه!

وفجأةً وكما ظهـرتْ تلك الطيـور الليليـةُ ذاتُ الأَجْنِحَـةِ الجِلْدِيةِ اخْتفَتْ، وابْتَلَعَهَا ظـلامُ الليلِ الحالكُ. وعادتِ الغابةُ إلى هُدوئِها المعهود.

7

وفي عيـادةِ الـدكتـورِ نـور الـدينِ خليل، رنَّ جـرسُ الهاتف مَرَّةً، فتركَهُ حتى يُتِمَّ عَـدَّ رِزْمَةِ فلوسٍ كانت في يـدِه، وفي الرنَّةِ الثالِثةِ الْتَقَطَهُ، فَسَمِعَ صَوْتَ زوجتِه الباكي:

- صَابرٌ، يا نورَ الدِّين!

- مَاذَا أصَابَه؟

- إنه لم يَعُدْ إلى الدارِ حتى الآنَ!

وَخَفَق قَلْبُ نُور الدين. كـان يُحِبُّ ابنَهُ حُبًّا لا مثيل له، ولا يَتَصَوَّرُ حَيَاتَهُ بِدُونِهِ؛ فَبَلَعَ رِيقَهُ وَسَأل:

- هَلْ بحثْتُمْ عَنْهُ عِنْدَ رَشيد؟

- قَلَبْنَـا الـدُّنْيَا عليـه قبلَ أنْ أنـاديك... قلتُ ربَّما يكـونُ عندك.

- أنا قادمٌ حالاً. فلا تَقْلَقِي.

ووضع السماعـةَ، ونظرَ إلى كفِّـهِ الْمُبْتَلَّةِ مفكِّـرًا، ثُمَّ قام ينـزِعُ بذلته البيضاء.

8

وفي الغابةِ بقي صابرٌ مُنْبَطِحًا على الأرضِ لحظةً، ليتأكَّدَ من أنَّ الخفافيشَ لنْ تعـودَ. وكانت أذُنُه تُـلاَمِسُ الأرضَ، فَظَنَّ أنهُ سمعَ شيئًا، فأصاخَ بسمعِه مُلْصِقًا أذُنَه أكثرَ بالأرضِ. وفِعْلاً سمعَ اهْتِـزَازًا يقتربُ منـــه، ويشتَـدُّ الاهتـزازُ ثم يبتعـــدُ قليـلاً ليَختِفِي.

وخطَر ببـالِه أنـه لا بدَّ أنْ يكـونَ لسيارةٍ أو شـاحنةٍ ثقيلـة. وأنصتَ مـرةً أخـرى، فإذا بـــالاهتـزاز يشتـدُّ ويقتربُ، فـوقَف بسرعـــةٍ، وأخَـذَ يُنْصِتُ في جميـع الاتجاهـاتِ. وفِعْـــلاً سمِع صوتَ محرِّكٍ بعيدٍ يأتي من جهةٍ مُعَيَّنَة.

ولم ينتظـرْ لحظةً، قفـزَ في اتجاهِ الصوتِ، وركضَ بكُلِّ قُـوَاهُ وهـو يَتَفَادى جـذوع الأشجـارِ والأحْرَاش المنتشرة بينهـا. ومن بعيدٍ لاحَ له ضـوءٌ يتحرَّكُ فخفقَ قلبُه. وكانت تلـكَ أوَّلَ علامةٍ من علائِمِ الحياةِ. . .

وبعـد دقـائقَ من الـرَّكْضِ وجـدَ نفسَـه على أولِ الطـرِيقِ المُعَبَّد.

فَـوقَفَ يلهثُ، وهـو يكـادُ يصرخُ من الفَرَحِ لِنَجَـاتِـه. . . لخروِجه من ذلك البحـر النباتي المُظْلِم إلى بَـرِّ السلامـةِ وشاطئ الأمان.

ومشَى بِمُحَـاذَاةِ الطـريقِ وهـو لا يـدري في أيِّ اتجاهٍ يسير، مكنـاس أم الـربـاط، ولم يكنْ يهمُّـه ذلك. فحيْثُمَا كـانَ البشرُ فتلكَ وجهتُه. وحتى مُخْتَطِفُه لم يَعُدْ يخيفُه كما كانَ قبلَ هَيَامِه.

ولاحَ له ضوءُ سيارةٍ قادمةٍ أمامه، فوقَفَ وَسطَ الطريق يُلَوِّحُ لهَا بساعِدَيْه. . ولكنها تفـادَتْهُ دونَ أن تتوقّف لحظَةً، واستمرَّتْ في طرِيقهـا لا تَلْوِي على شيء! وفكَّرَ صـابرٌ: «لا بـدَّ أنَّ راكِبَها فَزِعَ من وجودِ غُـلامٍ على قارعَةِ الطريقِ وسطَ الغـابَة، وفي هذا الوقتِ المتأخِّرِ. . . لا بـد أنه ظنَّه جِنِّيا أو عِفْـرِيتًا من عفارِيتِ الليل!».

وتَابَعَ صـابرٌ سَيْرَهُ عازِمًا على ألاَّ يتـوقَّفَ حتى يَعْثُرَ على بَشر حَيّ.

ولاحَ لـه شبحٌ كبيرٌ مظلمٌ جاثمٌ على جـانبِ الطريقِ، فَفَـزِعَ لـرُؤْيَتِـه. وحاوَلَ تَمْيِيـزَه من بُعْـدٍ فلمْ يستَطِعْ، بـالـرغمِ من أنَّ

عينيـه كانتـا قـد أَلِفَتَا الظـلامَ . وظَنَّـه أولاً صخرةً عظيمـةً ، أو شجـرةً قصيرةً مُجْتَثَّةً . وأخـذَ يقتربُ منه على حَـذَرٍ، حتى لمْ يَبْقَ بينهما إلاَّ بِضْعَةُ أمتارٍ، فإذا بنورٍ قَـويٍّ يَنْبَعِثُ من الكُتْلَةِ الجاثِمَة فيُعْشِي عينَيْ صابِرٍ، ويُوجِعُهُما بشدَّةِ نُصُوعِه .

وتسمَّرَ في مكانِـه كالأرنَبِ فاجَأهُ النـور، وذِرَاعُه على عينيه ، فأحسَّ بيدٍ قويةٍ تُمْسِكُ بِذِرَاعِه ، وبصوتِ مُخْتَطِفِهِ يقول :

- صابر!

ويقتادُهُ نحوَ السيارة :

- لماذا هـربتَ ، يـا ولـدي؟ كِـدْتَ تقتُلُني قَلَقًـا عليكَ . ارْكَبْ .

وَصَعِـدَ صابـرٌ إلى السيارةِ مُسْتَسْلِمًا لمصيرِه، وركِبَ الـرجل من النـاحِيَة الثـانيـة ، ونظر إلى صـابـرٍ الذي كـان يُحِسُّ بتعبٍ شديدٍ وجوعٍ أشَدَّ، وقال له :

- لا بـد أنَّ والِـدَيْكَ قَلِقَـانِ عليك جِـدًّا . . سنـذهبُ الآن إليهما .

وأشعلَ المُحرِّكَ ، وانطلَقَ نحوَ المدينة .

كانت العنز الصغيرةُ قاعِدةً على الكُرْسِي الخَلْفِي. نَظَرَ إليها الرجلُ، وقال:

- أرأيتَ ما فعلتَ بالعَنْزِ المسكينةِ؟ لا بدَّ أنها تَمُوتُ جوعًا، فقد فاتَ أوانُ عَشائها، وكذلك أنتَ. لقد اعْتَدَيْتَ علينا جميعًا بحَماقَتِك.

وعندَ مَدخَلِ المدينةِ توقَّفَ قائلاً لِصَابر:

- انتظرْ قليلاً. سَأُنَادي دارَكم، وأخْبِرُهم بأننا في طريقِنا إليهم حتى يَكُفُّوا عن القلق.

ونَزَلَ ثُمَّ عادَ فأطلَّ على صَابر وقال:

- إيَّاكَ أن ترتكِبَ حَمَاقَةً أخرى. لن أكونَ مسؤولاً عَما سيحدُثُ لك...

ولم يُجِبْ صابر، بل نظر إلى رُكْبَتِه في عدم مبالاة.

ودخل الرجلُ مخدَع التليفونِ العُمومي، ورفع السماعةَ، ووضع قطعةً نقديةً، وأدارَ القُرْصَ وأخَذَ يتكلَّم.

9

رَنَّ الجرسُ في دارِ الدكتـورِ خليلٍ ، فارْتَمَى عليـه الطبيبُ الذي كان يجلسُ في مَكْتَبِهِ يأكلُ أظافِرَه من القَلَقِ والخَوْفِ على وَلَدِه!

- آلو. . .

- آلو، الدكتور خليل؟

- نعم.

- أريدُك أن تعرفَ أن ابنَكَ صابرًا معي ، وهو بِخَيْر.

وحـاوَلَ الـدكتـورُ خليلٌ الكـلامَ ولكنَّ صَـوْتَـه انْحَبَسَ ، فحاولَتْ زوجَتُه إمساكَ السَّمَّاعَةِ من يَده سائلةً إيَّاهُ :

- من؟ صابر؟

فحَرَّكَ رأسَه لها بنعم، وتكَلَّم بعد لحظةٍ مُتَوتِّرةٍ في السماعة :

- أين صابر؟

- إنه معي هنا. فلا تقلقْ عليه بالمرَّة.

- ولكنْ مـاذا يفعلُ مَعَك؟ كـان المفـروضُ أن يعـودَ من المدرَسـة إلى بيتِـه في الخامسةِ مسـاء. والسـاعـةُ الآن تقتربُ من

الحادِيةَ عشرَة. ومنْ أنتَ على أيٍّ حال؟

- أنـا صـديـق. استطعتُ أن أُقْنِعَ بعضَ الأشرارِ الـذين اختطفُـوه بـألاَّ يُـؤْذُوهُ، ووعـدتُهم أن آتيَهُم منـكَ «بـالحَلاَوَةِ» الكَافِيَة. أنـت تعرفُ «بِشَارة» العُثورِ على الأمـانَةِ، وإِعَادَتِهَا إلى أصحابِها. . .

تنهَّدَ الدكتورُ خليلٌ عارِفًا ما يُريدُ مكلِّمُه، وقال:

- كَمْ تُرِيدون؟

- صابرٌ ولدٌ جميلٌ وَذَكيٌّ ويُبَشِّرُ بمستقبل بَاهِرٍ. . .

فَقَاطَعَه الدكتُورُ:

- كَمْ تُرِيدون؟

- لقـد أقنعتُهُمْ ألا يَطْلُبُوا مَبْلَغًـا غَيْرَ معقـول. وبعد عِـرَاكٍ طـويل استطعتُ أن أُخَفِّضَ المَبْلَـغَ إلى مـائَةِ أَلْفِ دِرْهمٍ فقط، عشرة ملايين سنتيم لا غير. . .

فصاح الدكتورُ خليل:

- عشرةُ ملايين!

وكانت زوجتُهُ مُمْسِكَةً بسَمَّاعةِ غرفةِ النومِ فقاطَعَتْه :

- سندفعُها . قُلْ لَهُ ، يا نورَ الدينِ ، إننا سندفعُها . . .

فقال الدكتور خليل :

- نعم ، نعم ، سندفعها . . .

فقال الرجل :

- حَسنا . متى يكونُ المبلغُ جاهِزًا .

فقال الدكتور:

- غدًا . غدًا صباحًا .

فَتَدَخَّلَتِ الأم :

- نريد أن نكلِّم صابِرًا . فأعْطِهِ السَّمَّاعَةَ .

وتردَّدَ الرجلُ ، ونظرَ من داخلِ المخْدَعِ الزجَاجِي إلى شَبَحِ الطِفلِ القاعِد في السيارة ، وقال :

- انتظروا قليلاً .

وفتح بابَ المَخْدَعِ ، وخرجَ ثمَّ عادَ بصابِرٍ ، وقال له :

- كَلِّمْ أمَّك .

ومدَّ إليه السَّماعَةَ. وتناوَلها صابرٌ، وصاحَ في وَسَطِها باكيا :

- ماما! ماما . . .

- ولدي صابر، لا تبكِ! هلْ أنْتَ بخير؟

- نعم . أنا بخير.

وكان الرجلُ يستمعُ إلى صوتِ الأُمِّ التي سألت :

- أين أنتَ الآن؟

فاختطفَ السماعةَ من يدِه، وأخرجَه من المَخْدَعِ، وتكلَّم :

- عرفتم الآنَ أنهُ بخير. غدًا سأتصل بكمْ مرةً أخرى لِنتَّفِقَ على مكان التبادُل. ولا داعِي لأَنْ أوصِيكُمْ بعدَمِ إخْبارِ الشُّرْطَةِ. أنتم تعرفون كيف تنتهي الحالاتُ التي يتدخَّلُونَ فيها . . .

ووضع الدكتورُ خليلٌ السَّماعةَ، ووقَف ساهِما بِبَصَرِهِ في الفَرَاغِ، ذاهِلاً عمَّا حولَه :

وجاءَتْ زوجتُه الشَّابةُ بلقيسُ، فَألْقَتْ بنفسِها عليه، وانْخَرَطَتْ في نَشِيجٍ مُتَقَطِّع. فَضَمَّهَا إليهِ، وَرَبتَ بيديه على ظهْرِها، مُهَدِّئًا روعَها، وهي تقولُ من خلال دُموعِها :

- هل سمعتَ صوتَه يا نورَ الدين؟ هل سَمعتَه يَبْكي؟ ولدي الحبيب، ولدي الغالي، ماذا سيفعلُ به ذلك المختطفُ المُجْرِم؟ ولدي. . ! ولدي. . !

وأخذَتْ تَهْتَزُّ بينَ ذِرَاعَيْ زوجِها، وهو لا يدرِي كيفَ يُخَفِّفُ من لوعتِهَا. . .

10

ووضعَ الـرجـلُ السـاعـةَ ، وأمْسَكَ بِيَـد صـابــرٍ ، وعـادَ إلى السيَّارةِ . وما ركبَ حتى استَـدَارَ راجعًا في اتجاهِ مكْنَاسَ . وقَبْلَ أن يَسْأَلَهُ صابرٌ قال :

- سيأتي أبُوكَ لأَخْذِك . هكذا اتفقنا .

وكانَ صـابرٌ يبكي بحُرْقَـةٍ ، ويَهْتَزُّ في مكانِـهِ من الانْفِعَالِ . سَمَاعُ صوتِ أمـهِ وأبيه فَجَّـرَ حُزْنَهُ . كـان يعتقِدُ أنـه فَقَدَهُما إلى الأبد . . .

والتَفَتَ إليهِ الرجلُ وقال باسِماً :

- لا تَبْكِ . فسوفَ تعودُ إلى أهلِك قَريبًا .

وســارت السيــارةُ مُدَّةً زادَت على عِشرينَ دقيقـةً ، مِمَّـا جعلَ صَــابـرًا يَتَمَلْمَلُ في مقعدِه ، وبـدأ يَشُكُّ في صحَّـةِ مـا قالَـه لَـهُ خَاطِفُه . فنظَرَ إلى الغاباتِ المُظْلِمَةِ المُحِيطَةِ بالطريق وسأل :

- إلى أينَ نحنُ ذاهبون؟

فردَّ الرجلُ ببساطَة :

– إلى المَزْرَعَة. والدُك يعرفُها جيِّدًا، وسيأتي عندنا هناك.

ووصلا إلى قرية سيدي عَلاَّل البَحْرَاوي، واخْتَرَقَاها. وحين تَوَسَّطَتِ السيَّارَةُ الغابةَ المُجاوِرَة لها انحَرَفَ السائِقُ إلى طريقٍ مُتْرِبٍ بين الأشجار. وبعد أكثر من سبْعِ دقائق، دخلت السيارةُ حوْشًا من القصَبِ، في وسطِهِ دارٌ عتيقةٌ، مُحاطةٌ بالدَّوَالِي وأشجارِ الفواكِه.

وأوقفَ الرجلُ السيارة، وخرجَ، ووقفَ يَتثَاءَبُ ويَتَمَطَّى، ثم انحنَى وأشارَ إلى صابرٍ ليخرجَ، فخرجَ بصعوبةٍ. كانت قدماهُ توجعَانِه. وكان يُحِسُّ بِضَعْفٍ شديد.

وأخرجَ الرجلُ العنزَ وأعطاهُ إياها، وأخرج من جيبه مفتاحًا فتحَ به بابَ الدارِ، ودخلَ وأشارَ لصابرٍ ليتبَعه.

وفي وسطِ الدار أشعلَ الرجُل فَتِيلَ فَنَارٍ قَدِيمٍ، وضَعَهُ على مائدةٍ باليَةٍ، وراحَ يُشْعِلُ مَصَابِيحَ أخرى.

ولمْ يَمْضِ رُبْعُ ساعةٍ حتى كانا يَأْكُلانِ مِنْ طبقٍ واحدٍ بَيْضًا مَقْلِيًّا في الزُّبدةِ بِخُبْزِ قَمْحٍ لَذيذ. وأكَلَ صابرٌ بِشَراهَةٍ شديدةٍ، والرجلُ يَصُبُّ له الشايَ ويُرَاقِبُه.

وبعد نهايةِ العَشاءِ مَلأَ الرجلُ رضَّاعةَ الحليبِ، وأعطاهُ إيَّاهَا ليُرْضِعَ العنزَ، وأشارَ لَهُ إلى غُرْفةٍ بها سَرير:

- اذْهَبْ إلى هنــاكَ مَعَ العَنْـزِ، واسْتَرِحْ قليـلاً فــوقَ ذلك السرِير حتى يَصِلَ أبُوكَ.

واسْتَلقَى صـابـرٌ على الفِــرَاشِ الخَشِنِ، ووضعَ إلى جـانِبـه العنـزَ، ونَـاوَلَهَا رضَّـاعَـةَ الحليبِ، فَأمْسَكَتْ بها بِلَهْفَـةٍ كبيرةٍ، وأخذَتْ تَمْتَصُّ بِقُوَّة. . .

11

فَتَحَ صابرٌ عينيهِ في الصباحِ على سَقْفِ الغُرْفَةِ الخَشَبيِّ، فَلَمْ يَـدْرِ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ أينَ هُـوَ؟ وظَنَّ أنَّـهُ مـا يزالُ نـائمًا يحلُم. ولكنْ سُرْعَانَ ما عـادَتْ إليه ذِكْرَيَاتُ الأمْسِ المرعبة، فاعتـدل جالسًا في السَّرير بِسُرْعَةٍ، ونظرَ حَوَالَيْه...

كانـت العَنْزُ نـائمةً على حصيرٍ بجانـبِ سريرِه، ووجَـدَ هو نَفْسَـه مُغَطًّى، وحِذاؤُه وجَـوَارِبُـه على الأرض. ولم يتـذكَّرْ أنـه نَزَعَهُمَا. لا بـدَّ أن الرجل الـذي لا يعرِفُ اسمَـه حتَّى الآن، هو الذي فَعَلَ ذلك.

وفَجْأةً خطَرَ له القَرار.

فَلَبِسَ جـواربه وَحِـذَاءَه بِسُرعةٍ، وخـرجَ يَتَسَلَّلُ باحثًـا عن مُخْتَطِفِهِ لِيَرَاهُ هو قبلَ أن يَرَاه.

وحينَ أطلَّ سمِع صوتًا من داخِلِ المطْبَخ:

- صباح الخير، يا سي صابر.

فردَّ صابرٌ في خَيْبَةِ أمل:

- صباح الخير.

- الحَمَّامُ بجانِبك. اغْسِلْ وجهَكَ وامْشطْ شَعْرَكَ، وتعالَ لتُفْطِر.

وجلَسَ الاثنانِ إلى المائدَةِ القديمةِ وسط الدار، يأكُلاَن شَطَائِرَ الخُبْزِ بالزبدةِ والشاي صامِتَيْن. وحين لم يتكلَّمْ صابر بَادَأَهُ الرجلُ بالسؤال:

- لَمْ تَسْألْني، لماذا لَمْ يأتِ أبوك.

- كنتُ أعرِفُ أنه لَنْ يأتي.

فضحِكَ الرجلُ في مَرَحٍ، وقال:

- وأنا كنتُ أعرِفُ أنك تعرِفُ أنه لنْ يأتِيَ بالأمس!

وَرَشَفَ من كأسِهِ، وأضاف:

- أبناءُ اليومِ يعرفونَ الهَمَّ الأَكْحَل! التليفزيونُ لم يَتْرُكْ سِرًّا دون أن يفضَحَه..!

وقاطعه صابر سائلاً:

- كَمْ طلبتَ من أبي فديةً لإطْلاقِ سَرَاحِي؟

فَتـوَقَّفَ الـرجُلُ عن المَضْغ لَحْظَـةً، وحـرَّكَ رأسَه، إعْجـابًـا بِفِطْنَةِ صابر، وابتسمَ ابتسامةَ لِصٍّ ضُبِطَ مُتَلَبِّسًا:

- كيف عرَفْتَ؟ هل استمعتَ إلى تليفونِ الأمس؟

- الأمرُ واضِحٌ، أَلَيسَ كَذلك؟

- لقد قُلتُها لك. التليفزيونُ فَضَحَ أسْرَارَ جميعِ الحِرَف.

ثم أضاف:

- طلبتُ من أبيكَ مَبْلَغًا مُتَـوَاضِعًا جـدًّا. ولو كنتُ طلبتُ مِائةَ مليونِ لأَخَذْتُهَا. فَأنْتَ أغْلَى عِنْدَ أبَوَيْكَ من كلِّ شيء.

فسأَلَ صابرٌ مُتشجِّعا:

- ولكنْ لماذا اخْتَرْتني أنا بالذات؟ لماذا اخترتَ أبي؟ إنهُ رجلٌ مستقيمٌ، ويحبُّ الخيرَ للناسِ جميعًا.

- اخترتُ والدَكَ لأسبابٍ عِدَّة. أولاً: لأَنَّهُ يستطيعُ الدَّفْعَ في أقربِ وقتٍ. وثانيًا: لأنك...

وتردَّدَ الرجلُ قبلَ أن يقول:

- وأرجــو ألا تَغضَبَ، اخترتُـكَ لأنَّك مُغَفَّـل، ويَسْهُلُ إغْرَاؤكَ!

فأحسَّ صابـرٌ بالدَّمِ يَصْعَـدُ إلى رأسِه من إهَانَةِ مختطِفِـه له . وكان غضبُه أشدَّ لأَنَّ ما قَالَه الرجلُ كانَ حقًّا لا جِدَالَ فيه .

ورغم ذلِكَ وَجَدَ نَفْسَهُ يقولُ مُحَاوِلاً الدِّفاعَ عن ذَكائه :

- أنا لستُ مُغَفَّلا ! فأنَا أطلعُ دائمًا من بين الخَمْسَةِ أو العشْرةِ الأوَائِلِ في الامتحان . . .

فحرَّكَ الرجلُ رأسَه مُلْغِيًا احْتِجَاجَ صابر:

- أنا لمْ أقلْ «بليدٌ» ، بلْ قلتُ «مُغَفَّلٌ . . » .

- وهل بينهما فرق؟

- فـرقٌ شـاسِع ! البليـدُ هـو الغَبِيُّ المُصَفَّحُ الـذي لاَ يَفْهَمُ شيئًـا . أمـا المُغَفَّلُ فقـد يكونُ ذكيًـا في دِراستِـه ، ولكنـه عَـدِيمُ التجرِبـةِ والذكاءِ الاجْتماعي ، بِحَيْثُ يَسْهُلُ خِدَاعُـه والاحْتِيالُ عليه ، مِثْلكَ أنت !

وقبلَ أن يُجيبَ صابرٌ بشيءٍ أضافَ الرجل :

- ولكنَّ السببَ الحَقيقيَّ الذي جَعَلَنِي أختارُ ابنَ طَبيبٍ هو أنني أَكْرَهُ الأَطِبَّاء .

ولأولِ مرَّةٍ ظَهَر الانْفِعَالُ على وجهِ الرجلِ. فسأله صابر:

- تكْرَهُ الأطباءَ؟ ولكن لماذا الأطباءَ بالذَّاتِ؟

- سأقول لك...

وتَنَهَّدَ الرجلُ وهو يَسْتَرْجِعُ ذِكرى لا بُدَّ أنها مُؤْلِمَةٌ للِغاية، وقال:

- كان لي طفلٌ صغيرٌ في حوالي العامَيْنِ من عُمُرِهِ. كان جميلاً كالياقُوتَة، سَمِينًا كالبطِّيخة، وَذَكِيا ولَعُوبا. وكان يَمْلأُ بيتي سَعَادَةً وأُنْسًا وَحُبًّا... وكنتُ أنا عَامِلاً مُحْتَرَمًا في أحَدِ المَرَائِبِ الزراعية، أشتَغِلُ ميكانيكيًّا للجَرَّارَاتِ، والسيَّاراتِ ومضَخَّاتِ الماء. وكنتُ أكسِبُ ما يَكْفِينِي لِقُوتِ عائلتي الصغيرة. حتى جاء يوم طَرَدَنِي فيه الرئيسُ الجديدُ للمركزِ الزراعي...

فقاطعه صابر:

- طردك! لماذا؟

- لِيُعْطِيَ وظيفتي لأَحَدِ أقَارِبِه الذي لا يعرِفُ شيئًا في الميكانيك!

- هذا فظيع! وهل شكَوْتَهُ إلى رئيسهِ؟

- شكوته إلى الله!

- ولكن لماذا لم تكْتُبْ رسالةَ شكوى به لرئيسِه؟

- لا جَدْوَى من الكتابةِ ولا نَفْع. كلهُم سواء. ويُدافِع بعضُهُم عن بعض...

- ولكنْ هل كتبتَ أنْتَ؟

- في الحقيقة لَمْ أكْتُبْ. ولكن ما الفائدة؟

فحرك صابر رأسَه متأسِّفًا على عَقْل الرجلِ، وقال:

- هذه هي مُشْكِلةُ الناس! يَتَعَرَّضُونَ للظلمِ ولا يَشكُونَ، ولا يَفْضَحون ظالميِهم عندَ رُؤَسَائِهم...

فردَّ الرجلُ يائسًا:

- ولَكِنَّ رُؤَسَاءَهم مِثْلُهم تماما!

- كيفَ عرفْتَ؟ هل جَرَّبْتَ الكتابةَ إليهم؟

- ناسٌ آخرون كتبوا.

فقاطعه صابر:

- هل جَرَّبْتَ أنتَ الكتابةَ إليهم؟

- لا.

- إذن كيف تَتَّهِمُ الناسَ بِكلامِ الآخَرين؟! بالإشَاعاتِ؟! كان يجِبُ أن تكتبَ أنتَ إلى رئيسِ مديرِ المركزِ. هذا ما سمعتُ أبي يقولُه مِرَارًا لبعضِ المُتَظَلِّمِينَ. بل ولا تكتفي بالكِتَابَةِ لرئيسِه المُبَاشِر، بل اكْتُبْ من الشكوى خَمْسَ نُسَخٍ وابعثْ بِهَا إلى جميعِ المسؤولينَ بِمَنْ فيهم وزير الزراعَةِ ورئيس الوُزَرَاءِ ورئيس الدولَة.

فضحكَ الرجلُ من غَفْلَةِ صابرٍ وقال:

- ما تزالُ مُغَفَّلاً كبيرًا، يا ولدي!

فاحمرَّ وجهُ صابرٍ مرَّةً أخرى وهو يَتَذَكَّرُ الإهانةَ، وقال:

- لماذا؟

- ألم تَسْمَعْ بما يُسَمَّى في الإدَارَةِ «بورَقَةِ الإرْسَال»؟

- ماذا تعني؟

- وَرَقَةُ الإرْسَال هي الرسالةُ التي يَبْعَثُ بها الرئيسُ رِسَالَةَ المظلومِ إلى ظَالِمِه، لِيزِيدَ في التنكيلِ به!

لم يَجِدْ صابر ما يقول، فزاد غضبُه لِعَجْزِه.

اسْتَأنفَ الرجلُ حديثَه:

- المُهِمُّ هـو أني بقيتُ عاطِـلاً مـدةً أبْحَثُ عن عملٍ، حتى نَفـدَ كُلُّ مـا وفَّـرتُـهُ من نُقـودٍ! وفي هــذه الفترةِ مَـرِضَ طِفْلِي الوحيـدُ. اشْتَعَلتْ فيه الحُمَّى بِسُرْعةٍ كبيرة حتَّى صـارَ كَجمرَةٍ تكوِي! وأخذتُـهُ إلى طَبيب وقلبي يتمزَّقُ خَوفـا عليه. وبدَلَ أن ينظُـرَ الطبيـبُ إلى الصَّبي المُحْتَرِقِ بـالحُمَّى أخَــذَ يَسْألُنِي هل معك فُلُوس..؟ وحينَ قلتُ له: إنني عـاطِل، وسوفَ آتيه بها حالَمَا أشتغلُ رَفَض مجردَ النظر إلى الطفلِ، وأخـرجَني من عيادتِهِ مطرودا...

بدا التأثُّرُ والغضبُ على وَجْهِ صابر:

- لماذا لم تَذْهَبْ إلى مستشفى عُمُومي؟

- المستشفى كان بعيـدًا، والإجراءاتُ فيـه طويلـة ومُعَقَّدَة. الانتظارُ وإهـانَاتُ مُسْتَخْدَمِي المُسْتَشفى وانعدامُ الإنسـانيةِ في المُمَــرِّضِينَ والمُمَــرِّضَــات، وطلبُهُم للفلــوسِ لتَسْبيقكَ على الآخرين... لا فائدَة! لا فائدَة على الإطْلاَق!

- وماذا حَدَثَ لولدِك؟

فتنهَّدَ الرجلُ بِعُمْقٍ وَقال:

- مَـاتَ ولـدي! ماتَ بين يَـدَيَّ... ضَمَمْتُهُ إلى صَـدْرِي فأحسَسْتُ بـأنَّـهُ تَحَوَّلَ إلى حَجَـرٍ بـارِدٍ.. ولمْ أصـدِّقْ أنـه مَات... ولدي... ولـدي... وَهِمْتُ على وجهي كالمجنون بينَ دروبِ المدينـةِ، وزوجتي خلفي تَبْكي وتَجْرِي ورائي، حتى أوقفنا الناسُ. وأخذُوا يُصَبِّرُونَنَا، ويُرْجِعونَنَا إلى صَوَابِنَا...

ونظَـرَ الـرجلُ بِطَـرفِ عَينيـه إلى صـابـرٍ فـوَجَـدَه يبكي من التَّأثُّـر... فأخْـرَجَ هُوَ الآخـر من جيبـه مِنْـدِيلاً كبيرًا، وأخـذ يمسحُ عينيهِ قائلاً:

- وهــذا مــا دفعني إلى الحِقْــدِ على المُجْتَمَع والانْحِـرَافِ والجَريمة.

ووضعَ المنــديلَ الكبير على وجْهِـهِ، وأخَـذَ يَشْهَـقُ وَيَهْتَـزُّ، وصابرٌ ينظرُ إليهِ دونَ أن يَدْرِي هل كانَ يبكي أو يَضْحَك!

وفي النهاية، رفع الـرجلُ المنديلَ عن عينيه، فإذا هما حَمْرَاوَانِ

تَملأُهُمَا دمـوعُ الضَّحِكِ المَكْتُوم، وقـال لصابـرٍ وهو يحرِّكُ رأسَـه يائسًا من إصْلاَحِه:

- مَـرَّةً أخـرى تَنْخَـدِعُ بِكَـلامي، أيها المغفَّلُ الصغيرُ! أنـا لم يَمُتْ لي ولـدٌ، بل لم أتـزوَّجْ أبـدًا، ولم أشتَغِلْ يـومًـا واحـدًا في حيـاتي. لماذا أشْتَغِل والمغفَّلُونَ مِثْلُـكَ كَثِيرونَ كبارًا وصِغـارًا؟! هُمْ يَشْتَغِلُونَ وَأَنَا أَجْنِي ثِمَارَ عَمَلِهِم...

وأضاف:

- ولكن هـذا لا يعني أنَّ مـا حَكَيتُـه لَكَ لمْ يحدُث. فقـد سمعتُ كثيرًا مِثْلَه. وهذا سَبَبُ حِقْدِي عَلَى الأطِبَّاء.

ووقف يَتَمَطَّى وَيَتثَاءَبُ في تجاهُلٍ تـامٍّ لصَـابِرٍ الـذي كـانَ يَتَمَيَّـزُ من الغَيْظِ، ويقـولُ في نَفْسِـه: «سَنَـرَى منْ المغفّلُ الحقيقي!»

وأظْلَمَتِ السماءُ بـالخارج، ولَمَعَ البرْقُ بَـاهِـرًا حتَّـى خـافَ صـابرٌ منـه على عينيه. وبعْـدَ لَحْظَـةٍ انْفَجَر الـرعْدُ انْفِجَـارَاتٍ مُتَتَابِعَـةً شدِيدةً حتى ظَنَّهَـا صابرٌ بَرَامِيلَ هَـائِلةً تَتَدَحْـرَجُ نَحْوَ الدارِ لِتَسْحَقَهَا! فَدَخَلَ تحتَ المَائِدَةِ مُحْتَمِيًا بها.

وانفتحت أبــوابُ السماءِ، وبَدَأ المطـرُ ينـزِلُ غـزيرًا، فـوقَفَ الرجلُ ينظُر من النافذة في قلقٍ، وقال:

- يجَبُ أنْ أنزلَ إلى المدينةِ الآنَ قبلَ أنْ تَنْسَدَّ الطريق.

وذهبَ الرجلُ فجلسَ إلى مِرْآةٍ في وسَطِ الـدارِ، وأخذ يُرَكِّبُ اللِّحْيَةَ البَيْضَـاءَ، ويَطْلِي حاجِبَيْهِ مُسْتَعِدًّا للخـروجِ، مُتَنَكِّرًا في هيئةِ بَدَويٍّ عَجُوز.

وَالْتَفَتَ إلى صابرٍ وقال له:

- اذْهَبْ وَجِئني بِجِلْبَابي.

وحينَ لمْ يَتَحَرَّكْ صَرَخَ فيه:

- ألمْ تَسْمَع؟

فوقَف صـابرٌ مُنْزَعِجًا لِصَيْحـةِ الرجلِ الذي تَنَمَّـرَ له لأَوَّلِ مرَّة، وقال:

- أين هو؟

- في غرفة نومي.

فَذَهبَ صابرٌ وعادَ بـالجلبابِ الصُّوفِي المُهَلْهَل، ووَضَعَه على

كُـرْسِي. كــان الـرجلُ يُصفِّـرُ سَعيــدًا، ويُغَنِّي بِكَلِمَاتٍ كـان يَنْظمُهَا في الحال:

يَعِيـشُ العُقَــــــلاءُ بِجَهْـــــدِ الأَغْبَيـــــاءْ
لَــــوْلاَ المُغَفَّلُـــونْ لَمَاتَ الأَذْكِيـــــــاءْ

والْتَفَتَ إلى صابِـر بِلِحْيَتِهِ وَوَجْهِـه الذي تَغَيَّرَ تَمامـا، وسأَلَهُ وهو يَسْعُلُ كَرَجُلٍ عجوز:

- ما رأيكُ؟ هلْ أصْلُحُ مُمَثِّلاً؟ في الحقيقـةِ لو كُنْتُ وُلِدْتُ في أمـريكا لاحْتَرَفْتُ التمثيلَ بَـدَلَ السَّرِقَةِ والابتَـزاز. ولَصِرْتُ نَجْماً مَشْهورًا وغَنِيًّا. ولكنْ لِسُـوءِ حَظِّي وُلِدْتُ في بَلَدٍ مُتَخَلِّفٍ، لا يُقَدِّرُ المَوَاهِب.

كانَ صـابرٌ يُفَكِّـرُ بِسُرْعَةٍ في طـريقَةٍ للنَّجـاةِ من قَبْضـةِ هذا اللِّصِّ الماكِر. كان غَضَبُه قـد تَضاعَفَ بعد أنْ تلاعَبَ الخاطِفُ بعواطِفِه، وأكَّدَ له، مَـرَّةً أخرى، أنَّهُ مُغَفَّلٌ، بل وبليدٌ يَثِقُ بأَيِّ شَيْءٍ، ويَسْتَطِيعُ كُلُّ مُحْتالٍ أن يَخْدَعَهُ.

والْتَفَتَ إليهِ الرجلُ، مرَّةً أُخرَى، آمِرًا:

- ابْحَثْ عنْ جِلْبَابِي المُشَمَّعِ لألبَسهُ فَوْقَ هذا . هَذا المطَرُ لاَ يَبْدُو عليه أنهُ سَيَتَوَقَّفُ .

- وأين هو؟

- بالطابق السُّفلي ابْحَثْ عنهُ في القَبْوِ. انْزِلْ مِنْ هُناك .

وأشارَ إلى سُلَّمٍ في رُكْنٍ بِجَانِبِ المَدْخَل . ونَزَلَ صابِرٌ خَائِفًا إلى القَبْوِ المُظْلِمِ ، وَوَقَفَ على آخرِ دَرَجَاتِ السُّلَّمِ ينظُر حَوَاليه .

وحينَ اعْتَادَتْ عَيْنَاه الضَّوْءَ البَاهِتَ الذي كانَ يَدْخُلُ من نافذة صغيرة رأى الجلباب المُشَمَّعَ ، فذهبَ إليه ، وهَمَّ بأخذِه من المِشْجَبِ .

وحينَ اقترَبَ منه لاَحَظَ فَوقَهُ خُطوطًا زَرْقَاءَ ، كخُطُوطِ قَلَمِ حِبْرٍ جَافٍّ . في تلكَ اللحظةِ فقطْ خَطَرَتِ الفِكْرَةُ في ذِهْنِهِ ، فأخَذَ يَبْحَثُ في جُيُوبِهِ عن قَلَمٍ ، دونَ جَدْوى .

وسمِعَ صَوْتَ الرجلِ يصيحُ بِهِ من أعلى :

- ماذا تَفْعَلُ هناك؟

فَعَادَ إلى الصُّعُودِ دونَ جِلْبَابٍ، قائلاً:

- لَمْ أعثُرْ على الجلباب. القَبْوُ مُظْلِمٌ لِلْغَايةِ. هَلْ آخذُ المِصْبَاحَ لأَبحَثَ عنه؟

- خُذْهُ وأسْرِعْ. فقد انْتَهَيْتُ من المكياجِ.

ودخَلَ صابرٌ غُرفةَ نَوْمِهِ حَيْثُ كانتْ مِحْفَظَةُ كُتُبِهِ، فأخْرَجَ منها قَلَمًا أحْمَرَ، وتَنَاوَلَ المِصْبَاحَ، وخرج مُتَوَجِّهًا نحوَ القَبْوِ. وهناكَ أشْعَلَ المِصْبَاحَ، ونَشَرَ الجِلْبَابَ على الحائِطِ بيدٍ، وأخَذَ يَكْتُبُ على ظَهْرِهِ بالقَلَمِ الأحْمَرِ بِخِطٍّ وَاضِحٍ:

«هَذَا سَارِقُ أطْفَال، اتْبَعُوهُ تَجِدوني».

وحينَ انْتَهَى، أخْفَى القَلَمَ، وأخَذَ الجِلْبَابَ المُشَمَّعَ، وصَعِدَ بِهِ مَطْوِيًّا بحيثُ لا تَظْهَرُ الكِتَابَةُ على ظَهْرِهِ.

ووجَدَ الرجلَ واقفًا يلبسُ الجِلْبَابَ الصُّوفِيَ الرَّثَّ، فَنَاوَلَهُ الجِلْبَابَ المُشَمَّعَ بطريقةٍ سَتَرَتْ عنه الكِتَابَةَ.

ولَبِسَهُ المُخْتَطِفُ دونَ أن يَشُكَّ في شيءٍ، والْتَفَتَ إلى صَابِرٍ، ودَفَعَه أمامَه قائلاً:

- أُدْخُلْ أنتَ غُـــرْفَتَكَ، وَاقْــرَأ كُتُبَكَ حتَّـى أعُــودَ. إذا نَجَحَتِ العَمَلِيَةُ فسيأتي أبوكَ ويأخُـذُكَ قبلَ الظُّهر. فَلاَ تحاوِلْ عملَ شيءٍ يعرِّضُ حياتَك للخَطَر، كالخروجِ مِن الدار مثَلا، فَحَوْلَ الـدارِ غابةٌ كثيفـةٌ ومُخِيفَةٌ وعـامِرَةٌ بالـوُحُوشِ والأَرْواحِ الشِّرِّيرَة.

وأدْخَلَهُ الغُـرْفَة، ودَخَل مَعَهُ ليتأكَّـدَ من أنَّ النافِذَةَ الـوحيدَةَ بها مُغْلَقَةٌ نِهائيًّا بـالألواحِ والمَسَامير. وخرجَ فأقفـلَ البابَ خَلْفَهُ بالمِفْتاحِ، تـارِكًا لهُ المِصْبَاحَ الكهـربائي، وبَعْضَ الأكلِ والماءِ. وذهب.

ووقَفَ صابـرٌ يُنْصِتُ إلى وَقْعِ أقْدَامِ الرجلِ وهـو يَبْتعدُ، ثمَّ إلَى صَــوْتِ البـابِ الخَارِجِي وهــو يُقْفَلُ، ثُمَّ صْــوتِ مُحَرِّكِ السَّيَّـارَةِ وهي تَبْتَعِدُ عن الـدار، وسطَ الغابـةِ، لِيُغَطِّيَهُ صـوتُ المَطَرِ الذي كان ينزلُ بِرتَابَةٍ واعْتِدَال.

وخَشِيَ صـابرٌ أن يَمْسَحَ المَطَـرُ مـا كَتَبَـهُ على ظَهْرِ الجِلْبَـابِ المُشَمَّعِ قبلَ أن يَقْرَأَهُ أحـدٌ، فوقَف يـدعو الله مُغْمَضَ العينينِ، ويَتَضَرَّعُ إليه بخشوعٍ كبير.

12

وفي ساحـةِ المدرسةِ بالمدينةِ كـان المطرُ قد تـوقَّف، فاجتمع زُمَـلاءُ صـابـرٍ وأَخَـذُوا يَتَسـاءَلـون عنـه. وأخيرًا قـرَّروا رُكـوبَ أَلْوَاحِهِمْ الدارجةِ والذهابَ إلى منزلِهِ لمعرِفَةِ سَبَبِ تَغَيُّبِه.

وطـرقَ جارُه، وصـديقُـه «مُحْسِنٌ» البابَ، ففـتحَـتْـهُ الخادِمُ، وفاجأها «محسنٌ» بالسؤال:

- أينَ صابر؟ لماذا لمْ يأتِ إلى المدرسة؟

وفتحتْ فَمَهَـا لا تـدري مـا تقـول، فإذا أمُّ صـابـرٍ تُمْسِكُ بالخادِمِ مـن كَتِفِها، وتُبْعِدُهـا عن البابِ، وتُعَلِّـقُ على وجهِها ابتسامةً مُتَكَلَّفَةً لِتُجيبَ «محسنًا»:

- صابر؟ هلْ تريدُ صابِر؟

- كنتُ فقط أسألُ لماذا لَمْ يَأتِ إلى المدرسة ؟

- إنه مُتْعَبٌ قليلا.

- تَعنينَ مريضًا ؟

- نعم.

فضحِكَ محسنٌ غير مُصَدِّق :

- لا يمكن !

واندهشتِ المرأةُ من جَوابِ محسنٍ الوَقِحِ ، وتَخَيَّلَتْ أنه سَمِعَ شيئًا عن الاختطافِ فَسَأَلَتْ :

- لماذا لا يُمكِن ؟

- لأنه ابنُ طبيب . كيفَ يَمْرَضُ ابنُ طبيب ؟

فابتسمتْ مُرْتاحةً ، وأجابَتْ :

- حتَّى أبناءُ الأطبَّاءِ يمرَضُونَ يا عزيزي !

وَهَمَّتْ بإقْفَال البابِ ، فَأَدْخَلَ حِذَاءَهُ في شقِّه ، وقال :

- هل أستطيعُ زِيَارتَه ؟

- إنه نَائمٌ الآن . عُدْ في المساءِ أوْ غَدًا .

ونظرَتْ إلى حِذَائِهِ وكأنها تقولُ له : «كَفَى !»

فَأَخْرَجَ حذاءَه من شِقِّ البابِ ، ووقفَ يُفَكِّرُ غيرَ مُقْتَنِعٍ بقصَّةِ الأم .

ونزل الدرجاتِ الثلاثَ، وخرج من الحديقة ليُوهِمَ أم صابر أنه ذَهَبَ. ثُمَّ عادَ فتَسَلَّقَ الحائِطَ القصيرَ إلى الحديقة، وَقَفَز إلى نافِذةِ غُرفةِ صابر، كما كان يَفْعَلُ دائِمًا حينَ يأتي لزيارته، وأطلَّ وَسطَ الغُرفة، فلم يَجِدْ أحدًا. كانَ فراشُ صابرٍ ما يزالُ مُرتَّبًا كما كان قَبْلَ أن ينامَ فيه.

وَتَساءَلَ: «يا تُرَى يكونُ نائمًا في غُرفةِ والديه؟».

وهَمَّ بالخروجِ قبلَ أن يَكتَشِفُوه وهو مُقْتَنِعٌ بأنَّهُ في غرفةِ الوالدين لِيَسْتَطِيعا العنايةَ به أكثر. إلاَّ أنه سمِعَ شيئًا أوقَفَه في مكانِه خلْفَ الباب.

كانت امرأةٌ تُوَلْوِلُ بأعْلَى صوتِها وسطَ الدارِ وتقول:

- ويلي! ويلي! سيدي صابر خَطَفُوه!

وسمع صوتَ أمِّ صابر تُحاوِلُ إسْكَاتَها:

- اسكتي يا خديجة! من قال لكِ هذا الكلامَ الفارغ؟

فَوَلْوَلَت المرأةُ:

- لا داعِيَ لإخْفَاءِ الحقيقةِ... وَيْلي! ولدي العزيزُ صابر! سَيَقْتُلُه المُجْرِمُون! إنهم لا يُعِيدُونَ أيَّ طِفْلٍ اخْتَطَفُوه...

ومن ثُقْبِ البـاب أطلَّ «محسنٌ» على المَشْهَدِ المَأْسَـاوِيِّ الذي كانَ يَحْدُثُ وَسـطَ الدارِ، فَرأَى أمَّ صـابر تَسْقُطُ مُغْمًـى عليها، بَينَ ذِرَاعي امرأةٍ أخرى.

ورأى الخَدمَ والمَرْأتَيْنِ يَتعـاونَّ على حَمْلِ الأم المُغْمَى عليهـا ويضَعْنَهَا على أريكَةٍ وَسطَ الدار.

وتوجَّهَتِ المرأةُ الثانيةُ إلى المرأةِ المُوَلْوِلَةِ تلومها على ما فَعَلَتْ:

- هَلْ جُننْتِ يَا امْرَأة؟

فَضَرَبَتِ الأخرى على صَدْرِها بِبَرَاءَةِ المظْلوم، وَسَألَتْ:

- مَاذَا فَعَلْتُ؟

- هل مثلُ ذلـك الكـلامِ يُقـالُ لأُمِّ غُـلامٍ مَخْطُـوف؟ هَلْ أعْجَبكِ ما رأيت؟

- ومـاذا تُـريدِينَنِي أن أفْعَـلَ؟ أكذِبُ عَلَيْهـا؟ أُخْفِي عَنْهَـا الحقيقة؟

- أيةُ حقيقة؟ هل رأيتِ الولـدَ مقتولاً بعينيك حتى تقولي لها ذلك؟!

- ولكنهـا الحقيقـة . . . المختَطِفون لا يُـرْجعُـون ولـدًا اختطفـوه، حتى ولـو أخـذوا الفِـدْيَـةَ، وذلك خـوفًا من أن يتَعرَّفَهُم ويفضحَهم. رأيت ذلك، مرارًا في أفْلاَم التليفزيون.

فحرَّكَتِ المرأةُ رأْسَها غاضبةً وكرَّرت:

- أفـلام التليفزيـون! هل نحنُ نُمَثِّلُ فِيلْما؟ وحتَّى ولو كـان ذلك حقيقـةً رأيتِها بعينيك فما كانَ يصِـحُّ لكِ أن تَقُولِيهـا أمامَ المرأةِ المسكينة. يا لكِ من قليلةِ ذَوقْ، ناقِصةِ عَقْلٍ وَلَبَاقَة!

وانْفَجَرَت المرأةُ المُوَلْوِلَةُ باكيةً للإهانة.

- هذا جَزَائي على قولِ الحقِّ! أصبحـتُ قليلَةَ ذَوقٍ وناقِصة عقل ولَبَاقَةٍ. لا يَصْلُحُ لكم إلاَّ الكذَّابُونَ والمُنَافِقُون!

فأمْسَكَتْ بها المرأةُ الأخـرى من ذِرَاعِهـا، وأجْلَسَتْهـا على كرسي قائلةً:

- صابر فعلاً مخطوف، وقد اتَّصَلَ خاطِفُه بأبيه، وطَلَبَ منه فـديـةً لِيُطْلِقَ سَرَاحَـهُ، واشْتَرَطَ عَدَم إخْبَـار الشُّرْطَـةِ، لـذلكَ فـالجميعُ هنـا يريـدُ إبقَـاءَ أمرِ اخْتِطـافِـهِ سِرًّا. وصُرَاخُكِ أنتِ وعَـوِيلُكِ لَنْ يُسـاعـدَ على ذلك. فأرجـوكِ أن تُسـاعـدِينَـا بالسكوت. فهمت؟

13

وتَسَلَّلَ محسنٌ خارِجًا من نافِذَةِ غُـرفَةِ صَابر إلى الحَديقةِ، ثم تَسَلَّقَ جِدَارَهَا إلى الشارع حيثُ كان ينتظِرُهُ زُمَلاَؤُه.

ودخَلَ وسطَهم فاجتمَعُوا عليه يَتَهَامَسُون. فَأَسْكَتَهُمْ بِيَـدَيْهِ قائلاً:

- شـشـش! شيءٌ خطيرٌ حَدَثَ لِصَابر. . .

- ماذا؟ ماذَا حَدَثَ؟

- ششش! إنهم خَطَفُوه!

فارتَفَعَتْ منَ الجماعةِ شَهْقَةٌ عالية:

- خطفوه؟!

- ششش! لا أحَـدَ يَعـرفُ غيرُ أهلِ الـدارِ. وأعتقِـدُ أنهم يَجْمعون الفِدْيَة، وينتظرُونَ اتِّصالَ اللِّص.

فسأَلَ أحد زملاء صابِر اسمُه «محمد»:

- ماذا يُمكِنُنا، نحنُ، أن نفعلَ لإنقاذِ صابر؟

فقال محسن مفكرًا :

- لا أدري . يَجِبُ أن نُفَكِّرَ في طريقةٍ للعمل .

وبَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ وَحَيْرَةٍ ، قال محمد :

- اسمعوا ، إذا كـانَ المُخْتَطِفُ سَيَتَّصِلُ بوالدِ صابـر ، لِيَتَّفِقا على تسليمِ الفِدْيَةِ ، فكيفَ سيكونُ الاتِّصال؟

وقبل أن يجيبَ أحد ، قال محمد :

- عن طريـقِ الهاتف ، طبعًا . وأيُّ هاتـف؟ هاتف دَارِه؟ لا أعتقِـدُ أن لِلْمُخْتَطِـفِ دَارًا . وحتى إذا كـانـت فَلَنْ يجرُؤَ على الكـلامِ مِنهـا خـوف الاكتشـافِ . فَمِنْ أينَ يتكلَّم؟ من إدارةِ البريـد؟ لا يمكن ؛ سيخافُ أن تسمَعَـه عامِلَـةُ الهاتفِ . فماذا بَقِيَ لـه من وسـائلِ الاتِّصـالِ إذَنْ ؟ هـاتف الشـارع . وإذا اسْتَثْنَيْنَـا هــواتف المَقَـاهِي والـدكـاكينِ ، فلن تبقى إلا مَخَادِعُ الهاتفِ العمومية بالشارع .

فقال محسن مُتَحَمِّـسًا :

- أحسنت ، يـا محمـد! إذن ليس لنـا أمـلٌ في العثـور على

المختطِفِ إلا حـولَ مَخَادِعِ الهاتف. فَلْنَنْتَشِرْ كُلُّنا. وَلِيَأخُـذْ كلُّ واحِدٍ مَخْدَعَ هاتف يَحْرُسُه من بعيدٍ. فإذا دَخلَه شخصٌ، يَنتظرُ حتَّى يبدأ الكلامَ، وحينئذٍ يَقترِبُ من المَخْدَعِ لِيستَمِعَ إلى كلامِه دونَ أن يَراه، إذا استطاعَ.

وسأل «أمين»:

- وإذا وَجَدناه، ماذا نَفْعَل؟

فنظر الجميعُ إلى محسنٍ، قائِد العمليةِ، فلم يَزِدْ على أن قال:

- هذا سؤالٌ مُهِمٌّ، هل عندكُم اقْتِراح؟

فرفع «عُمَرُ» إصْبَعَهُ:

- يمكنُ أن نَسْتَعْمِلَ «الماشي - واشي»، الهاتف الـلاسِلكي النَّقال. أنا وأخي عثمانُ عندنا زَوْجٌ منه.

فصاحَ «محسن»:

- جميل! جميل جِـدًّا! كيف لم أُفَكِّـرْ في ذلك؟ أنـا الآخـر عندي زَوْجٌ. من عندَه (الماشي - واشي)؟

فرفع خمسةٌ أصَابِعَهُم، فقال محسن:

- يكفي هـذا العَـدَدُ. لِنَـذْهَـبِ الآنَ إلى منـازِلِنـا، فَنَأْخُـذ شَطَـائِرَ للغـداء.. و(الماشي - واشي)، ونـذهب حـالاً إلى المخادِع الهاتفية. اتركوا الأجهزة تعملُ طولَ وقتِ العَمَلِيَة.

وانتَشَرَ الفتيان في جميعِ الاتِّجَاهَـاتِ، يَدْرُجُـون على ألواحهم الدارِجَة بسُرْعةٍ ومَهَارَة.

14

وحوالي الساعة الواحِدِة ظُهْرًا كان المُخْتَطِفُ المُتَنكِّرُ في شكلِ بَدَوِيٍّ عجوزٍ يصعَدُ بسيارَتِهِ البـاليةِ الطريق الصاعِد من جِسْرِ (محمد الخامس) إلى ساحةِ (أبـراهام لينكولن). واخْتَرَقَ الميدَانَ على مَهَلٍ إلى شـارِعِ الجزائِرِ، فسـاحـةِ الوحْـدةِ الأفـريقيـة، ثم شارع عنَّابَـةَ، حيثُ بَدَأ يبحثُ عن موقِفٍ لسيارتِـه قَريبٍ من (سوقِ الزهور).

وأوَقَفَ السيـارةَ، ونظرَ حـوالَيْهِ في كلِّ اتِّجاهٍ، ثُم تحرَّكَ نَحْـوَ مخدعِ الهاتف الـواقعِ على جَنْبِ الطـرِيقِ الفـاصِل بينَ الســوقِ الجديد ومحطَّة وقود (لامارن).

كـان حسنٌ زميلُ صابـرٍ في القِسْم والـذي يجلس إلى جانِبِـه مباشرةً مُنْشَغِلا بقراءَة مجلَّةٍ مصوَّرَةٍ، يَرْفَعُ رأسَه ليَمْسَحَ الساحَةَ بعينيه، مِن وراءِ نظَّارَته السَّمِيكةِ، من حينٍ لآخَر.

وَرَأى الـرجلَ البدويَّ يتحـرَّكُ نحوَ مَخدعِ الهاتف، فلم يُعِـرْه أي اهتمام. لم يَكُنْ يتصـورُ أنَّ رجُـلاً في ذَلك المَظْهـرِ يمكنِ أن يَخْطِفَ أحدًا.

ووقف الرجل أمامَ المخدعِ الهاتفي ينظرُ حوالَيْه . وحينَ تأكَّدَ من أن كلَّ شيءٍ هادِئ دَفَعَ البابَ، ودخل .

ولم يَتَوقَّعْ حسن أن يَسْتَعمِلَ رجلٌ مثلَه الهاتفَ ، فتظاهَرَ بأنه ذاهبٌ واقتربَ من المَخْدعِ ، وانحنى خَلْفَهُ مُتَظَاهِرًا بِعَقْدِ حِذَائه .

وحينَ رَفَعَ رأسهُ لينْظُرَ إليهِ وَقَعَتْ عيناه علَى الكِتَابَةِ فوقَ ظَهْرِهِ . وَحَسِبَها أولاً خطوطًا عَشْوائيةً على جلْبابٍ مُشَمَّع ؛ ولكنه حين رَكَّزَ اهْتِمامَه عليها فتَحَ فَمَه من الدَّهْشَةِ والمُفاجَأة . كانَ الخطُّ مألوفًا عِنْده جدًّا ؛ فهو خَطُّ صابر، يعرِفُه جيدًا .

وقرأ : «هذا سارِقُ أطفالٍ . اتْبَعُوهُ تَجِدُوني» ، فَدَقَّ قَلْبه بسُرعة .

وَدَهِشَ ، ولمْ يدْرِ ما يفعلُ ، فلم يكُنْ مَعَه جِهازُ (الماشي - واشي) .

وبعدَ لحظةٍ من التَّرَدُّدِ ، وقف وانْسَحَبَ من خَلْفِ الرجلِ دونَ أن يَرَاه ، وأسْرَعَ نحوَ قِسْمِ الشرطةِ المركَزِي ، مُسْتَعْمِلاً لَوْحَهُ الدارِجَ ليُسْرِع .

وعلى بابِه وجدَ شُرْطِيًّا واقِفًا فَصَاحَ به :

- وَجَدْتُه . . ! وجدتُه ، يا سيدي !

فَنَظَرَ إليه الشرطيُّ باستغراب وقال :

- ماذا تَفْعَل ، يا بني ، في الشارعِ في هذِه الساعة؟ هذا وقتُ الغَدَاء .

فأعَادَ عليه ما قَالَه أولاً:

- أرجوكَ يا سيدي ! لقد وَجَدْتُهُ ، وأخَافُ أن يُفْلِتَ !

- وَجَدْتَ من؟

- خاطف صابر، زميلي في المدرسة . وهو في مَخْدَعِ الهاتف يُكَلِّمُ والدَ صابر. أرجوكَ تعالَ معي . . .

- لا أستطيعُ مغادرةَ مكاني هذا . أنا مُكَلَّفٌ بالحراسَةِ هنا .

- ومن يأتي معي لِلْقَبَضِ عليه؟

- سَأبْحَثُ لكَ عن شُرْطِيٍّ يذهب مَعَك . ولكنْ كيفَ عَرَفْتَ أنه مُخْتَطِفُ زمِيلِك؟

- إنها مَكتـوبَـةٌ على ظَهْرِهِ! على جِلْبَـابِـه المُشمَّع. تعـالَ وَسَتَرى. إنه قريبٌ من هنا. إنه في مَخْدَع الهاتف.

ولم يتحرَّكِ الشرطيُّ السمينُ، بل أخَـذَ يَنْظُرُ حَـوَالَيْه، ثُمَّ إلى داخِلِ المَرْكَـزِ وَيَتَثَاءَبُ ويُنَـادِي بِبَعْضِ الأسماءِ، غَيْرَ عَـابئ بِحَسْرَةِ الطفل الذي يَحْتَرِقُ أمَامَه...

15

وَوَضَعَ المُخْتَطِفُ السَّاعَـةَ، وخرجَ من المَخْـدَعِ عائدًا نَحْـوَ سَيَّارَتِه.

وَمَـرَّ من أمـام المَقْهَى المجاورِ لِمَحَطَّـةِ البنـزين، فَتَبِعَـهُ رجلٌ عـريضُ الأكْتَـافِ، قَـوِيُّ العَضَـلاتِ، كـان يأكُلُ شَطِيرَةً، فَلَاحَظُ مـا كُتِبَ على ظَهْرِه، وقَامَ لِيَقْرَأهُ. وحينَ قَـرَأهُ أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِنْدِيلاً، واسْتَوْقَفَ الرجُلَ قائلاً:

- اسْمَحَ لي، يا عَمِّي. دَعْنِي أمْسَحُ ظَهْرَ جِلْبَابِكَ من وَسَخٍ غَريبٍ عَلِقَ بِه.

ووقَفَ اللِّصُّ يَنْظُـرُ إلى الشَّابِّ العِمْـلاَقِ بِتَرَدُّدٍ وَرِيبةٍ مُحَاوِلاً التَّخَلُّصَ منه بقولِهِ:

- لا دَاعِيَ لتَوْسِيـخِ مِنْدِيلِك. فَهَذا جلبـابٌ مُشَمَّعٌ يَسْهُلُ مَسْحُه. شكرًا لك، شكرًا

ولَكِنَّ الشابَّ لَمْ يَـذْهَبْ، بَلْ وَضَعَ ذِرَاعَهُ القَـوِيَّةَ عَلى كَتِفَي اللِّصِّ، ومَشَى مَعَهُ هَامِسًا له:

- لاَ تَخَفْ. لاَ يَعْـرِفُ أحَـدٌ غيْرَنا شيئًـا على الإطْـلاَق. كَمْ طَلَبْتَ من أبي الضَّحِيَّة؟

وَدَقَّ قلبُ المُخْتَطِفِ، وتَصَبَّبَ عليـه العَـرَقُ البـارِدُ، ووقفَ ينظرُ إلى الشابِ العريضِ، ويُفَكِّرُ في طريقةٍ للتَّخَلُّصِ مَنه، ولَمْ يَسْتَطِعْ الإنْكَارَ فسأل:

- ولكنْ كيْفَ عَرَفْتَ؟

وابْتسمَ الشابُّ مُرْتَـاحًا لِوُقُوعِ الفَرِيسَةِ في فَخِّـه، كان سؤالُ المُخْتَطِفِ اعْترافًـا ضِمْنيا بِفَعْلَتِه. إذنْ عليـهِ أن يَسْتَغِلَّ المَوْقِفَ لِصَالِحِه أكبرَ اسْتِغْلاَل. فقال:

- إني أنْقَذْتُـكَ من اعْتقالٍ مُحَقَّقٍ، يـا مِسْكين. كان مكتـوبًا على ظَهْرِكَ: «سارِقُ أطفَالٍ اتبعُوهُ تَجِدُوني» هل عَرَفْتَ ذلكَ؟

وحـاوَلَ المختطِفُ رؤيـةَ الكِتَـابَـةِ بـالالْتِفَـاتِ إلى الخَلْفِ، فَطَمْأنَهُ الشاب:

- لا تقلقِ الآن. لقـد مَسَحْتُها تَمامـا. فماذا سيكونُ جَـزَائي على إنْقَاذِك؟ ألاَ أسْتَحِقُّ حِصَّةً من الفِـدْية؟ عَلَى أيِّ حَالٍ، كَمْ طَلَبت؟

فنَظَرَ الخَاطِفُ حَوَالَيْه، وأجَابَ:

- لاَ يَنْبَغِي أن نتحدث في الشارع.

- أنتَ على حَقّ. أينَ نَذْهَب؟

- أعْـرِفُ مَقْهًى صَغيرًا نتَكَلَّمُ فيه بِهُدوءٍ دونَ أن نُثِيرَ فُضُـولَ أحَد.

- لِنَذْهَبْ إليه إذن.

وتوجَّهَ الاثنانِ إلى مَقْهى (البَيْدَرِ) بشارع (لُومُومْبَا).

وَعَاد حسـنٌ يَجُرُّ شُرْطيًّا كبيرَ السِّنِّ إلى ناحيـةِ مَخْدعِ الهاتف. وحينَ لمْ يجد الرجلَ قال للشُّرْطيّ:

- لاَ بُدَّ أن يكونَ قريبًا من هنا. لا بدَّ أنه انْتَهَى من المُكَالَمَة.

فحرَّكَ الشرطيُّ رأسَه:

- أخْشَى أن تكُـونَ تَخَيَّلْتَ كلَّ هــذا. فَمَنْ هــذا الـوَلَــدُ المَخْطُوف؟

- إنه صابر ابن الدكتُور نُورِ الدين خَليل. هل تعرفُه؟

- نعم. أعرفُه جَيدًا. ولكن لماذا لمْ يُخْبِرْنا باخْتِطافِ ابنهِ؟

- الأمرُ واضِح. إنه يَتَفَاوضُ مَعَ اللِّصِّ.

- سَوفَ أكلِّمُ الدكتورَ بالهاتف. فإذا كنتَ تكذبُ عليَّ فَسَأشْكُوكَ لِمُعَلِّمِكَ، سَمِعْتَ؟

وبَرَقَتْ عَيْنَا حسن فَجْأةً، من خلفِ نَظَّارَتِه السَّمِيكَةِ، وصاح:

- هناك! انظر!

- صاحِبُ الجِلْبابِ المُشَمَّع؟

- نعم.

وَسَحَبَهُ مِن يَدِه خَلْفَه:

- سَتَرَى مكتوبًا على ظهرِهِ: «هذا سارِقُ أطْفالٍ، اتْبَعُوهُ تجدوني».

وأسرعَ الشرْطي خلفَه حتى لم يَبْقَ بينَهُما وبينَ الرجلين إلا مسافةُ ثلاثَةِ أمتارٍ. وحاولَ حسن أن يَقترِبَ أكثرَ ليرَى الكِتَابَةَ فلم يجدهَا.

وتوقَّفَ الشرطيُّ خَائِبَ الأمل:

- أينَ الكتابةُ التي قُلْتَ عنها؟!

- لا أدري ماذا وَقَعَ لها. لا بدَّ أنهُ مَسَحَها.

فتوقَّفَ الشرطي. وأمسَكَ بكتفي حسن وقال:

- أتَعْرِفُ ما يَجِبُ أن تَفْعَل؟ اترك عملَ الشرطةِ للشرطةِ، واذهب أنتَ للغداءِ والمدرسة!

وَتَرَكَه فاتِحًا فَمَهُ يُشيرُ إليه مَرَّةً، وإلى اللِّصِّ بِإصْبعِه مرَّةً أخرى، وقَفَلَ راجعًا إلى المَرْكَز.

وَقَرَّرَ هو أن يتْبَعَ اللِّصَّ أيْنَمَا ذهب. فَرَكِبْ لَوْحَه الدارجَ وتَظَاهَرَ باللعبِ، هو يُراقبُ الرجلين من بعيدٍ من الخلف.

وحينَ دَخَلا المقهى مَرَّ بجانبه مرَّتَيْن ليتأكدَ من أنهُمَا جلسا، وذهبَ مُسْرِعًا إلى حيثُ كان محسنٌ ينتظرُ أخْبارَ الجماعةِ على (الماشي- واشي).

وحينَ رآهُ أمْسَكَ بيدِه وَسَحَبَهُ بقوة:

- تعالَ.. تعالَ.. لقد وجدتُه! أسْرِعْ قبلَ أن يُفْلِت!

وأسرَعَ الاثنانِ نحوَ المقهى. وتوقَّفَ هو. وقال لمُحسن:

- انظرْ بالداخل. هناكَ رَجُلٌ بَدَوِيٌ عَجُوز، وشابٌّ عريض

الكَتِفَيْن. الخاطِفُ هو العَجوز. رَأيتُ كتابةَ صابرٍ على ظَهْرِه بعينيَّ. ولكن يظهرُ أنَّ صاحِبَه رَآها. وَمَسَحَها.

ومرَّ محسنٌ ببابِ المَقْهَى فرَأى البدوِيَّ العجوزَ يتوجَّه إلى المِرْحاض. فعادَ إلى حسن وقال له.

- قف أنتَ هنا. إن اللصَّ ذاهبٌ إلى المِرْحَاض، وسوفَ أدورُ حَوْلَ المَبْنَى، لأرَى هل للمِرْحاضِ نافِذةٌ يمكنُهُ الهروبُ منها.

وقبلَ أن يتحرَّكَ، فَتَحَ هَوَائي (الماشي - واشي) وأرسَلَ نِداء عَامًّا:

- إلى جميع أفراد (عملية صابر)، هل تسمَعُونَني؟ حَوِّلْ. إلى جمِيع أفرادِ (عملية صابر)، هل تسمعونَني؟ حَوِّل.

وانتظَرَ قليلاً، فإذا أصواتُ أربعةٍ من الأولادِ تزدَحِمُ على جِهازِ الاسْتِقْبَال:

- سمعنا. حوِّل.

- وَجَدْنَا الهَدَف. تعالوا جميعًا إلى مقهى «لاغْرانج». حَوِّل.

- حالا! حالا! اقْفِل .

ودخَلَ محسنٌ دربًا ضَيِّقًـا طويـلاً فإذا بِرَجُلٍ أصْغَـر سنًّا من البَدَوِي يَنْزِلُ، ويطلِقُ سَاقَيْهِ للرِّيح .

وَأطلَّ محسنٌ من نافذةِ المِرْحـاضِ فإذا جِلْبَابُ اللصِّ الصُّوفيُّ والمشمعُ، واللِّحْيَةُ والعِمَامَةُ مُكَوَّمَـةً على أرْضِهَا، فتأكَّدَ من أنَّ الـرجلَ الهاربَ هـو اللصُّ الخاطِفُ، فعَـادَ بسرعـةٍ إلى حسن، وطلب منه أن يتْبعَهُ في مطارَدَةِ اللصِّ الهارِب . . .

وجرى الاثنان خَلفه، ومحسنٌ يتكلَّم في (الماشي - واشي) :

- إلى جميع قـواتِ (عَمَليـة صابـر)، الهدفُ هَـارِبٌ في اتجَاهِ شَارِعِ (عَبْدِ الرحمن انجاي) هل تـسمعونني؟ حَوِّلْ .

وجاءت أصواتُ الجمَاعة :

- سَمِعْنَـاك . سَنَعْتَرِضُ طَرِيقَـهُ من جِهـةِ (ساحـة الوحـدة الأفريقية) . حول .

وانْحَرَف اللصُّ فجأةً إلى زَنْقَةِ (مولاي حفيظ) في اتجاهِ شارعِ (عنَّابَة) .

ومن شارعِ العَلَوِيِّينَ وشارعِ الجَزَائِر وساحةِ الجُولان، كانتْ أفْوَاجٌ من التلاميذِ تتحرَّكُ كالجَرَادِ في اتجاهِ شارع عَنَّابَة، مِنْهُم من يَدْرُجُ على الألْواحِ الدارِجَة، ومنهم من يَجْرِي بكل قواهُ، ومنهم من رَكِبَ الدرَّاجاتِ، والدراجاتِ النَّارِيةَ، وعلى ظُهورِهم محافِظُهم المدرسيةُ.

كانت الجماعةُ الأولَى قد التَقَتْ تلاميذَ المَدَارِسِ المجاوِرَةِ وأخْبَرَتْهُم (بعمليةِ صابر) فانْضَمُّوا إليهم أفواجًا.

وخرج المختطِفُ مُتَوَجِّهًا نحوَ سَيَّارَتِه. وأخرَجَ المِفْتَاحَ من جَيْبِهِ ليفتحَ بابَها، فاقتَرَبَ منه محسنٌ بِسُرْعةِ البَرْقِ، وخَطفَ منهُ المِفْتَاحَ، وابْتَعَدَ على لَوْحِهِ الدارِجِ في اتجاهِ (سُوقِ الزهور).

وكانَ فوجٌ من التلاميذِ قادِمًا في وَجْهِه فأشَارَ لهم إلى اللِّصِّ:

- هَاهُوَ مُخْتَطِف صَابر، حاصِرُوه! لا تَدَعُوه يُفْلِت!

وَفُوجِئَ اللصُّ بِمَوْجَة الأطفالِ قادمةً صوبه فَارتَدَّ على عَقِبِهِ مُتَوجِّهـا نَحْوَ (ساحة الوحدة الأفريقية) فَإذَا أمواجٌ أخرَى من الأطفالِ والغِلْمَانِ تُغْلِقُ طَرِيقَهُ تمامًا، وتَمْنَعُهُ من التحرُّك...

وكان رجـالُ الشرطةِ قد لاحَظُوا حـركَةَ الأطفالِ غيرَ العـادِيةِ فتبعُوهم على الأقدامِ وبالسَّيَّارَات.

وتـدخَّلوا لإنقـاذِ اللصِ الـذي كـادَ يَفْتِكُ بِـه الصغارُ لـولا صِيَاحُ محسنٍ وبقيةِ رِفَاقِه:

- لا تضربوه! نحتاج إليه لمعرفة مكان «صابر»!

وعلى جانبِ الطـريقِ وقفَ الشابُ العـريضُ الكَتِفَيْنِ يَتَفَرَّجُ على أسْرَابِ الأطْفالِ تَمْلأُ الشـوارعَ. ورآه حسن، فقال لمحسنٍ مُشِيرًا إليه:

- هذا صـاحِبُه! كانـا معًا في المَقْهى. يجبُ ألاَّ يُفْلِتَ، وإلاَّ ضَاعَ صابر...

وَوَقفَ محسنٌ وسَطَ جَمَاعَتِه مُشيرًا إلى الرجلِ العِمْلاقِ:

- هذا صاحبُ المُخْتَطِف! لا تَتْرُكُوه يُفْلِت!

واجتَمَع عليـه التـلاميـذُ، يَضْرِبونَ على ظهـرِهِ بِـأَلْـوَاحِهِم وَعَجَـلاتِهِم الحَدِيـدِية، وهـو يُحَاوِلُ الإفـلاَتَ، دونَ جَـدْوَى. وقبض عليـهِ رجالُ الأمنِ، هـو أيضًا، وهـو يحاوِلُ جاهِـدًا أن يَتَبَرَّأَ من فَعْلَةِ صاحِبه، ولا من يسمعه!

وقَيَّدَهُمَا رجالُ الأمنِ، وساقُوهُمَا إلى المركز بَيْنَ هتَافِ التلاميذِ وتَصْفِيقهم. وفي المركزِ نَزَعُوا عَنْهُما القيودَ، وَوَضَعُوهُما معًا داخِلَ غُرْفَةٍ صغيرةٍ في انتظارِ قدومِ الضَابِطِ المُكَلَّفِ بالاسْتِنْطَاق.

16

وفي الغُـرفـة المُعْتِمَـةِ تَـوَجَّـه الـرجلُ العَـريضُ الأكتـافِ إلى المُخْتَطِفِ حَانقًا، وقال:

- هل ستقولُ لهمْ إنني لَسْتُ معك؟

فَلَمْ يُجِبْـهُ اللصُّ الذي كـان ساهِمًا يفكِّـرُ في مَصيرِهِ المُظْلِم. فأمْسَكَ بِتلاَبِيبِهِ وَصَاح:

- تكَلَّمْ يا وَجْهَ الوَيْلِ! أنـا بَرِيء! أنا لَمْ أُشَارِكْك في عَمَلِيَّتِكَ المَقيتة! تكَلَّم!

فَنظَرَ إليه اللصُّ بعينين حَمْرَاوَيْن، وقال:

- لا تَخَفْ. لا تخف.

فَأطْلَقَ اللِّصُّ العِمْـلاقُ سَرَاحَـه، وعَادَ يجلِسُ على كُرْسِيـهِ الخَشَبِيِّ، ويَحْدِجُهُ بنَظَراتٍ حَاقِدَة، ويَشْتُمُه بَيْنَ أسْنَانِه.

ونَظَـرَ إليـه اللصُّ بِشِبْه ابتسـامـةٍ شـاحِبةٍ، وقـالَ بصـوتٍ خافِت:

يا طامِعًا في مَزيدٍ　　　حَذارِ من نُقْصانِ

فالْتَفَتَ إليهِ الآخرُ سَائِلاً بِعُنْف :

- ماذا قُلتَ ؟

- لاَ شيء . لا شيء بالمرة .

وانْفَتَحَ عليهِمَا البابُ ، وطلَبَ الحارِسُ منهما الخروجَ ، فَتَبِعَاهُ إلى مكتبِ المُحَقِّقِ . وهنـاكَ اعْتَرَفَ اللِّصُّ بأنـه خَطفَ صَابـرًا ، وطَلَبَ من وَالِـدِه فِـدْيَةً ، عشرةَ مَـلاَيين سَنْتيم ، وبِأَنَّ صـابـرًا يوجدُ سجينًا عندَه في دارٍ مَهْجورةٍ بغابةِ المَعْمُورَة .

وسأَلَه الضابطُ :

- هل هذا شَريكُكَ في عمليةِ الاخْتِطَاف !

فَنَظَـر الخَاطِفُ إلى العِمْـلاَقِ البَشَرِي بِتَحَـدٍّ كَبيرٍ ، وقــال للضَّابِط :

- طبعًا ! نحنُ شَرِيكَانِ في العملية . . .

وهُنا استَشَـاطَ الشابُّ غَضبًـا ، وارْتَمَى على اللصِّ ، فأمسَكَ بِصَدْره ، وَأَخَذَ يَنْطَحُهُ والآخَرُ يَسْتَغيث .

وبَعْدَ عِرَاكٍ طَوِيلٍ اسْتَطَـاعَ خَمْسَةٌ من رِجالِ الشُرْطَةِ الفصْلَ بينهما . فَأمَرَ المُحقِّـقُ بِسجْنِ المُعْتَدِي ، وَطَلَبَ سَيَّارَةً لتـأخُذَهم إلى الغابَةِ للعودَةِ بِصابر .

17

وعَلَى بَابِ المَرْكَـزِ كانَ وَالِـدَا صابِـرٍ يَخْرُجَانِ مـن سَيَّارَتِهِمَا ، فَتَقَدَّمَا إلى الضـابِط المكلَّفِ ، وعَرَّفَاهُ بنفسيهما ، فطلبَ منهما أن يَتْبَعا مَوْكِبَهُ إلى الغابة .

وَحينَ وَصَـلاَ إلى الدار المهجـورَةِ فَتَحَ اللصُّ البابَ ، ثُمَّ بـابَ الغُرْفَة ، فَخَرَجَ صابرٌ مُنْـدَهِشًا لامْتِلاَءِ الدارِ المَهْجُورةِ عليه فَجْأَةً برجالِ الأمن ، وَمَعَهُمْ مُخْتَطِفُهُ دَامي الوَجْهِ ، مُكَبَّلاً بالحديد .

وَتَقَـدَّمَ أَبُـوهُ وأُمُّـهُ فارْتَمَى هُـوَ بَيْنَ أَذْرعهما ، وفـاضَتْ عُيُـونُ الجَميعِ من التَّأَثُّرِ لِلْمَنْظَر .

وَبَكَى المُخْتَطِفُ هو الآخرُ وأخَذَ يُرَدِّدُ :

- أنا تَـائِبٌ إلى الله ! لَنْ أَعُودَ إلى هذِه الفعْلاَتِ الشَّنِيعَـة ! أنا مُجْرِمٌ حقير ! وأسْتَحقُّ كلَّ عقَاب !

فواجهه صابر ، وهو يمسح عينيه وقال :

- كذبت ، وصدقت !

فَنظر إليه الحاضرون باستغراب ، فشرح قولته المتناقضة :

-كذب حين قال إنه تاب، وأنه لن يعود لفعلاته الشنيعة، وصدق حين قال إنه مجرم حقير، ويستحق كل عقاب!

فقالت أُمُّهُ وهي تعضُّ على شفَتِها السُّفْلَى مُؤَنِّبَةً:

- صابر!

فقال صابر:

- أنا أعرَفُ به منكم جميعًا! ورغم ذلك فإني أشكُره.

وزاد استغرَابُ الجماعةِ لِكَلام صابرِ. وكان المُخْتَطِفُ أكْثَرَهُمْ اسْتِغْرَابًا، فَلَمْ يَتَمَالَكْ أنْ سَأل:

- علَى ماذا، يَا ولدي؟

- على الدرْس الذي علَّمْتَنِي. إنني لَنْ أنْسَاهُ مَدَى حَيَاتي...

فابتسمَ المُخْتَطِفُ آمِلاً أن يَسمعَ كلمةَ ثناءٍ تُخَفِّفُ العقابَ علَيه، وسأل:

- أي دَرْس، يا صابر؟

- ألَّا أنْسَاقَ وَرَاءَ شَهَوَاتِي، وألَّا أثِقَ بِمَنْ لا أعْرِفُهُمْ مِنَ النَّاس. وفَوْقَ كُلِّ هَذَا أنْ أعْمَلَ بِنَصَائِحِ وَالِدَيَّ وَمُعَلِّمِي، وأنْ أسْتفيدَ من تَجارِبِ غيري.

فَوَضَعَ عميدُ الشُّرْطَةِ يدَهُ على رَأْسِ صابِرٍ، وقال :

- عافَاكَ، يا وَلَدي ! لَمْ تَذْهَبْ تَجْرِبَتُكَ القَاسِيةُ سُدًى .

ومَدَّ الدكتورُ نُورُ الدين خَلِيل يَدَهُ إلى الضَّابِطِ مُصافِحًا :

- لا أدْرِي كيفَ أشكُرُكَ ، ياسيدي !

- على ماذا، يا دُكْتُور خليل؟

- على إنقاذِ وَلَدي طَبْعا!

فَحَرَّكَ الضابِطُ رأْسَهُ غيْرَ مُوافِقٍ، وقال :

- إذَا كانَ أحَدٌ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ فَهُوَ صابر؛ فَهُوَ الذِي أنْقَذَ نَفْسَهُ بِنَفْسِه بتلكَ الحيلَةِ الذَّكِيَّةِ التي نَبَّهَتْ أصْدِقَاءَهُ إلى المُخْتَطِف . وَبَعْدَ صَابر يَأتي أصْدِقَاؤُهُ وَزُمَلاَؤُهُ في المَدْرَسَةِ الذينَ سَاعَدُونَا في القَبْضِ على المُجْرِمِ .

وَتَدَخَّلَ صابر مَرَّةً أُخْرَى ليقولَ مُشيرًا إلى المُخْتَطِف :

- ولا نَنْسَى أن نُقَدِّمَ الشُّكْرَ لهذا، كَذَلِك . . .

فنظرَ إليْه المُختطِفُ، مُتَوَقِّعًا إهَانَةً أُخْرَى، وسأل :

- عَلَى ماذا، هَذِه المرَّة؟

فَرَدَّ صَابر:

- عَلَى وَصْفِكَ لِي «بـالمُغَفَّلِ» . . ! فَلَـوْلاَ ذَلِكَ لَمَا فَكَّـرْتُ في تلكَ الحيلَةِ لِلإفْلاَتِ من قَبْضَتِك . فَمَنْ مِنَّا المُغَفَّلُ الآن؟

فَعَضَّ اللِّصُّ على لِسَانِهِ مُغْتَاظًا ، وقال :

- يَا لَكَ مِنْ مُغَفَّلٍ مَاكِرٍ!